ديوان قصائد الشاعر عبد المنان
باسم "باقة ازهار حسان"

د/ محسن عثمانى☆

هذا ديوان شاعر لايعرفه الكثيرون ولكن قصائد ه من الاهمية بمكان من ناحية الموضوعات ومن ناحية الابداع والقدرة على القريض. ظل هذا الديوان مجهولا تحت ركام الكتب عند نجله المرحوم فى مسجد من المساجد فى منطقة ميوات اوفى مدرسة انشأها أحد ابنائه. تناول هذا الديوان مؤظف من شعبة المخطوطات بالمعهد الهندى للدراسات الإسلامية جامعة همدرد فخطه بيده من جديد فجاءت هذه القصائد كلها بين دفتين فى صورة كتاب مخطوط ومضى على ذلك ردح من الزمن ولا زال الديوان مخطوطا غير مطبوع ولكنه كامل غير منقوص. فكم من مخطوط لم ير النور ولم يظهر إلى حيز المطبوعات ومازال ولا يزال درا مكنونا ورحيقا مختوما فإن هذا الديوان أيضاً من الدرر المكنونة ولأول مرة يصبح موضوعا للمقالة ويعرض إمام لفيف من علماء العربية.

يتكو ن هـذا الـديوان من قصائد الشاعر العبقرى عبد المنان

☆ رئيس القسم العربى بجامعة دلهى.

الدهلوى الميواتى الذى هو من مواليد هذا القرن وتوفى فى عام ١٩٧٤ وإسم والده هو الشيخ عبد السبحان الميواتى وضريحه بجوار ضريح الخواجه باقى باللّه مرشد الشيخ المجدد للالف الثانى الشيخ أحمد السرهندى رحمه الله. نشأ الشيخ عبد المنان فى بيئة دينية واسرة تحب الدين وعلماء الدين وتجعل من رجال التقوى والروحانية نموذجا وقدوة فاشرب فى قلبه محبة رجال الدين والربانيين فسافر من ميوات إلى دلهى وبدأ يتردد على مجالس العلماء وخاصة جماعة التبليغ تحت قيادة الشيخ مولانا الياس وتعلم اللغة العربية فاتقنها وقرأ القرآن على ظهر قلبه وتعلم العلوم العربية فبر ع فيها. وما ان درس الشعر حتى بدأ يقرض الأشعار وله باع طويل فى هذا المجال اكمل التعليم فى المدرسة الأمينية فى دلهى وهو كان من تلاميذ سماحة المفتى محمد كفاية الله الدهلوى الذى كان من العلماء الإجلاء ومن فحول الشعراء الا انه لم يعرف كشاعر قط ، وبعد اكمال تعليميه بايع على يد العالم الربانى الشيخ محمد زكريا الذى كان شيخ الحديث فى مدرسة مظاهر العلوم ثم استفاد من الشيخ المفضال عبدا لقادر رائيبورى المحدث فى رائيبور اربع سنين يخدم شيخ الزاوية ويتمرن على ذكر الله حتى بلغ إلى درجة من الروحانية والسلوك وقد سرى ذكر الله فى شرايينه ويجرى مجرى الدم وكانت زمزمته الذكرية يجذب القلوب والأسماع بكرة واصيلا. ثم عاد إلى دلهى وتم تعيينه كأستاذ الأدب والتفسير فى المدرسة السبحانية فى قصاب توله فى دلهى فكان من أحسن الأساتذة وقد اوتى من الله ذاكرة لاتغادر صغيرة ولاكبيرة إلاّ أحصاها . فحفظ مقامات الحريرى على ظهر قلبه وإستظهر ديوان المتنبى وديوان الحماسة

ودرس بامعان البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وادب الكاتب لإبن قتيبة والأمالى لأبى القالى وهذه من امهات الكتب والمصادر فى الأدب والشعر وإن ذلك فتق حته الشعرية فبدأ يقرض الشعر فأكثر واجاد. واحاطنى علماء بعض علماء ميوات أن سماحة الشيخ مولانا أبوالحسن على الندوى كان كتب مقدمة ضافية على هذا الديوان على طلب الشاعر فى حياته ولكن المقدمة أصبحت غير معثورة عليها وتم العثور على هذا الديوان الذى مدّه اقدم هذه المقالة الوجيزه امام أساتذة العلم والأدب فى هذا الحفل. وإن الشاعر الفحل الشيخ المنان كا ن يقابل سماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى فى مجالس العلماء الربانيين مثل الشيخ مولانا زكريا والشيخ عبد القادر رائے بورى والشيخ حسين أحمد المدنى فكان يعاشره ويصحبه فى كثيرمن المواقع. وكان يدرس فى المدرسة السبحانية ويقرض الأشعار والقصائد الطويلة بدون ان ينشره فى مجلة او جريدة فلم يكن لها دوى فى أوساط العلم والأدب بل كان يقرأ هذه القصائد أهل العلم والدين بشغف فيستجلب الأنظار من جراء القدرة الكلامية وجودة الشعر ومتانة الحبك الملك على ناصية القريض. وكان أهل العلم والدين يحبونه لإستعداده للعلم وموهبته الشعرية من الشعر ينبع من يراعه كما تنبع ينابيع الأشعة من عين الشمس. ويقول أقاربه ومن رآه أنه كان فكه الحديث حاضر البديهة طلق الوجه بساما صافى الديباجة وضاحا فكان ممن رآه السيد محمد جنيب الرحمن الميواتى صاحب كتاب علماء ميوات والذى عثر على قصائده الكثيرة والطويلة معها وكتب سيرة الشاعر واحداث حياته باسهاب وتفصيل بحبر من المحبة والعرفان بالجميل. الان أصبح من

الواجب ان نقدم بمقطوعات قصائد الشاعر من هذا الديوان لهذا الشاعر الهندى الذى لم يعرف الناس كماله فى ميدان الشعر ووان الديوان فى حوالى أربعماة صفحة والقصائد مكتوبة بخط غير جلى ولو طبع هذا الديوان على النمط الذى هو المنهج للدواوين العامة فى هذا العصر لأصبح هذا الديوان فى أكثر من خمسمأة صفحة.

وإن الشاعر سمع إن القاديانيين قد تنجسوا الحرم المكى. ودخلوا فيه فاغتاض وإشتد غضبه وفاضت قريحته فقال :

لوجه الله احسانا و ايمانا و إيقانا
وإخفاء واظهارا و اسراراً واعلانا
وايقاظا وتنبيهاً وتعظيما وتبيانا
الايا اخوتى كونو عباد الله اخوانا
خذوا اعمال ماتصلح تقوا شراو نقصانا
فلا تصغوا ولاتلوو إلى إبليس شيطانا
يريدان تضلّو عن صراط الحق خسرانا
معاذ الله من شخص خفيف العقل لسانا
لعين عاش دجالا وكذابا وخوّانا
ومكثاراً ومهذاراً وسبا يا ولعانا
يقول إننى يوصى إلى وانّ لى شانا
فيا عجبا لمملكة وقاها الله ماشانا
وآفات سماوية وارضية وكم صعانا
تبيح دخول مرتد يبيت الله مثوانا

إن لهذا الشيخ عبد المنان ديوانا يدل على موهبته وكفائته في ميدان الشعر ولكنه لم يحاول ان يعرفه الناس.لم يرسل قصائده الى المجلات لتتزين بحلى الطبع والنشر فكان يقرأ قصائده على مرشده الشيخ عبد القادر رائے بورى والشيخ مولانازكريا والشيخ مولانا حسين أحمد مدنى وامثالهم وعلى علماء جميعة العلماء واساتذه دار العلو م ديوبند،مظاهر العلوم وكان مقربا إلى اولياء الله وأعلام العلماء متواضعاً لين الخلق. كا ن يشترك فى بعض المحافل الأدبية للعلماء فيتغرّد مثل العندليب ويقرأ قصائده فى المحافل الخاصة.

كتب قصيدة بمنا سبة إنعقاد مؤ تمر ببلدة سورت فى ولاية غجرات فى نومبر ١٩٥٦ وبدأ يحسن الدبياجة.

هبّ النسيم وفاحت الأرجاء وصفا الزمان ودرت الانواء
فى كل شئى بهجة ومسرة شكرت الطيور وغنّت الورقاء
فعت بما لحقوت المفاخر رأسها اذحل فيها قاد ة كملاء
فاق البلاد فضيلة وسعادة فوق المراتب رتبة علياء
فالحمد لله الذى اسدى لنا نعما تجلت ما مالها احصاء
اهلاً وسهلاً با لكرام ومرحبا قدا قبل العلماء والزعماء
قال النبى عليه الف تحّية فيما رواه السادة النجباء
الوارثون نبيهم من بعده تتمون له هم العلماء
وهم الذين يجاهدون ولا يخا فون الملام اعزة رحماء
قالوا جهاراً لا ندين لمن طغى لوكانت الأمراء والرؤساء
وأبوا على الاعلان ذلّ تعبد يا حبذا انكار هم واباء

حبسوا وقد صلوا بغير جريمة فالارض شاهدة وثم دماء

ومن قصائده تحية الاجلال والترحيب إلى شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدنى رئيس اساتذة ازهر الهند دار العلوم ديوبند ورئيس جمعية علماء الهند فقال

سلام على شيخ جليل مبجل محامده تبدو وتعلووتنجلى
سلام على شمس العلوم وبدرها سلام على راس رئيس مفضل
سلام على من كان اقصى مرامه رضى الله مولانا وليس بموقل
سلام على من لاح نور جبينه يضئ كمثل الشمس اشراقها جلى
سلام على من ظل ينصبّ من صدى لمن لم يمزينى الجنوب الشمال
امام همام لاخلاف محدث خطيب ضليع من يقو ل بفيصل
وفى ظلمات الليل يجمع برهة يقوم ويتلو من طوال المفصل
ويدعو اله العرش مبتهلامتى يقل: اسبلى ياعينى د معا وتسبل
وفى قلبه خوف من الله محكم ومن كان يخشى الله فيتهلل
كريم السجايا قد وجدت حياته دربى كعيث وابل متسلسل
هو العالم التحرير يشفى صدورهم ويدرأعمارابهم اى معضل
و فى الله لا يخشى ملامة لائم يكا بدا حزانا كنحو ابن حنبل

☆☆☆

أهمية اللغة العربية للاقليات المسلمة

الدكتور مظهر معين☆

توجد الأقليات المسلمة فى اغلبية الدول المنتشرة فى مشارق الأرض ومغاربها خارج العالم الإسلامى . واللغة العربية هى لغة دينية لكل مسلم من مسلمى هذه الدول كما انها لغة دينية لكل مسلم فى الدول الإسلامية.وهناك كثير من النقاط المشتركة الدالة على اهمية اللغة العربية للا قليات المسلمة الموجودة فى كل مكان وحاجة المسلمين إلى اللغة العربية فى دول اقلياتهم اشد من حاجتهم اليها فى دول اغلبيتهم لانهم يعيشون فى بيئة اجنبية دينياً وثقافياً كما انهم يواجهون كثيرا من المشاكل الدينية والثقافية لايواجهها غيرهم من المسلمين من ابناء الدول الإسلامية.ومع ذلك كله لا يشعر كثير منهم بأهمية اللغة العربية كلغة الاقليات المسلمة المشتركة ولا يفكرون فى تعلمها واجادتهانطقا وكتابة وفهما كما لا يعتبرونها لغتهم الاولى قبل لغتهم الام لعدم معرفتهم بأهيمتها الدينية و الثقافية. ونلخص فى النقاط الاتية اهمية اللغة العربية من النواحى

☆ استاذ مشارك بقسم اللغة و الآداب الاسلامية جامعة بنجاب لاهور باكستان

المختلفة حتى يشعر كل مسلم فى الدول الاجنبية بضرورة تعلمها ونشرها بين المسلمين من سكان بلاده.

١ـ لغة القرآن الكريم:

ان اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم الذى هوالاساس الأول للدين الاسلامى ومحور الشريعة الاسلامية. ويجب على كل مسلم تلاوة القرآن باللغة العربية كما يجب عليه الاجتهاد فى فهم آياته واحكامه وتفاصيله ـ وقد بين سبحانه وتعالى اهمية اللغة العربية كلغة القرآن قائلا:

١ـ انا انزلنا قرآنا عربيا [١] ـ

٢ـ وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين [٢] ـ

وكذلك وعد سبحانه وتعالى بحفظ القرآن العربى إلى الابد قائلا:

إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحا فظون [٣] ـ

وتدل هذه الآيات و إمثالها على اهمية اللغة العربية الفصحى او اللسان العربى البين مع ابقاء القرآن العربى إلى ابد الآبد بن بلاتعريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ـ وكان ولا يزال مابين الدفتين مصونا ومحفوظا ومرتبا من اول لفظه إلى آخر حرفه ـ فلا يزال القرآن ولسانه العربى باقيين إلى آخر الدهر ـ ولا نستطيع ان نقول هذا بالنسبة لأية لذة من لغات الاقليات المسلمة او غيرها كما انه لابُدّ لكل مسلم موجود فى اى بلد من بلدان الاقليات المسلمة ان يتعلم تلاوته باللغة العربية والتجويد الصحيح مع فهم لغته وآياته والعمل به فى دوائر الحياة الفردية والاجتماعية إلى

اقصى حد مستطاع -

فنزول القرآن الكريم بالعربية - كما يتضح من آيات القرآن نفسه - دليل اهميتها وافضليتها وباعث نهضتها، وصاحب الفضل الاكبر والاثر الاظهر فى نشرها وخلودها - وهى ايضاً لانها اغنى اللغات بيانا واقواها برهانا كانت ولا تزال عاملا مساعداً لنشر الإسلام والاقبال عليه - ويكفى تدليلا على ذلك اختيار الله لها لسانا لدينه العام والاخير، وهو الإسلام، ومنه بذلك على العرب خاصة والمسلمين عامة[٤]

وقال عباس محمود العقاد، عبقرية العرب والإسلام فى هذا الموضوع: ولقد قيل كثيراً ان اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن وهو قول صحيح لاريب فيه، ولكن القرآن الكريم إنما ابقى اللغة لأن الإسلام دين الإنسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب او قبيل -.....

إن هذه الفضيلة الإنسانيه التى لاتفرق بين العربى والاعجمى ولا بين القرشى والحبشى، لهى التى انهضت لخدمة اللغة أناسا من الاعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية اى أنهم عاروا عليها من لغة امهاتهم وآبائهم، لا نها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الإسلام -

وستبقى اللغة العربية مادام لها انصار يريدون لها البقا - ولم ينقطع أنصارها فى عصرنا الحاضر بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون، ويتلاقى ابناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها، لانهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر ولالسنة والإفكار[٥] -

وأثر القرآن أثره الشديد فى جميع اللهجات العربية فى جميع

أنحاء الجزيرة فقد بدات تبلبل وتضطرب وتنجذب بقوة إلى لغة القرآن حتى إندمجت كلها فى لهجته التى هى لهجة الحجاز كما كان ينطقها خاصة اهل مكة ـ

وقد ظل القرآن منذ ذلك الحين إلى الآن وهو الينبوع الفياض الذى يرتوى منه علماء الدين واللغة جميعا والمنار المضئى الذى يهتدون بنوره إلى محجة الصواب كلما اظلم عليهم الجوا واشكل عليهم الأمر فى اى فرع من هذين الفرعين ٦ ـ

ولم تنهر اللغة العربية بانهيار الدولة الأموية وذلك بفضل القرآن الذى احاط بالعربية بهالة من القداسة والجلال فمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته، فاستمرت حية تتوارثها ألسنة جيل بعد جيل، وإن السبب المباشر الذى أظهر الدراسات اللغوية هو ارتباطها بالدراسات الدينية واتحاد ها فى النشاة ـ فقد أنزل القرآن كتاب العربية الأعظم على الرسول العربى الكريم ليدعو قومه إلى سبيل الرشاد، وكان بلغتهم وعلى اساليب كلامهم ـ٧

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى اهميه الشعر العربى لاسيما الجاهلى من الناحية اللغوية لفهم القرآن وتعيين معانيه ـ

"إذا قرأتم شيا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى اشعار العرب فان الشعر ديوان العرب"٨

فلذلك قال مقدار بن أسد مادحا عائشة ام المؤمنين ـ

"ما كنت أعلم أحدا من أصحاب رسو ل الله ﷺ بشعر ولا فريضة من عائشة رضى الله عنها٩ ـ

وقال الإمام الثعالبي:

"من احب الله تعالى أحب رسوله محمدا ﷺ ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ومن أحب العرب . حب العربية التي بها أنزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم".١ـ

وينبه السيد نيكلسون على نهضة اللغة القرآنية في العصر الحديث مستندا إلى قول السيد مارجوليوت:

"أخبرنا بسند عال إن اللغة العربية تنهض من جديد ـ وهناك كل الإمكانيات بانها سوف تكون جهازا ادبيا عظيما مرة أخرى ـ وإذا كانت العربية احتلت في قلوب غير العرب من المسلمين نفس المكانة التي تتمكن منها اللغة اليونانية واللا تينية في الثقافة الاوروبية الحديثة يجب ان لا ننسى إن القرآن الكريم الذي هو قطعتها المتازة واشهر نماز جها الرائعة يتعلمه كل مسلم لما يبدأ الذهاب إلى المدرسة ويقرأ مكررا في صلواته اليومية ويوثر في جميع مجالات حياته إلى الحد الذي من العسير لم سيحيى عام أن يدركه تماماً ـ"

" We are told on high authority that even now it is going a renais- ance, and there is every liklihood of its again becoming a great literary vehicle.

And if for those muslims who are not

Arabs, it occupies relatively much the same position as Latin and Greek in modern European culture, we must not forget that the koran its most renowned masterpiece, is learned by every moslem when he first goes to school, is repeated in his daily prayers and influences the whole course of his life to an extent which the ordinary Christian can hardly realize. " (11)

وقد يصح قول من قال إن كل ناطق بالعربية يعتبر عربيا فكل قارى للقرآن عربى إلى معرفته بلغة القرآن بدون تقييد الزمان والمكان - وتؤيده فكرة القومية العربية الحديثه التى اسست منذ بدايتها على قاعدة واسعة وهى مبدأ إعتبار جميع الشعوب الناطقة باللغة العربية امة واحدة -

"Arab nationalism started from a wide base - the thesis that all Arabic speaking peoples were one nation." (12)

فلا فرو إذا اعتبرنا كل مسلم فى بلدان الا قليات المسلمة عربيا لارتباطه الباشر بالقرآن العربى صلاة وتلاوة طيلة حياتة -

٢: لغة الحديث النبوى :

إن اللغة العربية هى لغة الحديث النبوى إضافة إلى كونها لغة القرآن الكريم - وكان النبى عليه السلام أفصح العرب - وقد أوجب سبحانه وتعالى إتباعه على المسلمين قائلا :

١- ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا٣ ؎-

٢- لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة٤ ؎

٣- قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[١٥]

وتنص هذه الآيات وامثالها على وجوب اتباع الرسول عليه السلام فى جميع أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه - فقال عليه الصلاة والسلام فى أهمية حديثه وسنته قبل ذهابه إلى الرفيق الأعلى:

تركت فيكم أمرين لن تضلوا مهما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله[١٦] وقال عليه السلام:

لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به[١٧] وكذلك قال عليه الصلاة والسلام:

لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[١٨] فلا يخفى على احدٍ من المسلمين أن النبى عليه السلام هو واجب الإتباع فى جميع أمور الدين إلى يوم الدين - فلذلك دوّن جميع أقواله وأفعاله أو احاديثه وسننه وتقاريره فى كثير من الكتب ألتى ألفها أبرز العلماء المحدثين فى مختلف إنحاء العالم الإسلامى - ولا يزال يشتغل آلاف العلماء المحدثين بالتدريس والافادة والتصنيف والتاليف فى العلوم المتعلقة بالحديث النبوى - ونجد آلاف الكتب المدونة فى الحديث النبوى وشرح الأحاديث ، وحل عويصها والتطبيق بين مختلف الحديث وفى غريب الحديث والأحاديث الموضوعة والمجعولة - وهذا علم فريد من علوم الإسلام الأساسية لا نجد له مثالاً عند الأمم الأخرى رواية ودراية وحديثا وسنة وقرا ئة وتطبيقا وفى غير ذلك من مميزاته -

وأما الكتب التى دونت فيها الأحاديث والسنن النبوية فتعد بالمئات - ولكل مدونة منها مكانتها فى علم الحديث المبنى على

أصول الحديث الواسعة . ونرى على رأسها ثمانية كتب التى أجمعت العلماء وعامة المسلمين على كونها مصادر واحاديث والسنن الأساسية لصحة رواياتها وقِدَمها - ولا يزال العلماء والمحدثون وجميع أهل الإسلام متفقين على اهميتها وصحتها منذ أكثر من ألف سنة. ولا يزال هذه الكتب معتبرة و مسلمة ككتب أساسية للأحاديث والسنن النبوية فى كل عصر ومصر - وهى :

١- الموطا - تاليف الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة (ت ١٧٩هـ)

٢- مسند أحمد - تاليف الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى (ت ٢٤١هـ)

٣- صحيح البخارى - تاليف الإمام محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦هـ)

٤- صحيح مسلم - تاليف الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى (ت ٢٦١هـ)

٥- سنن أبى داؤد - تاليف الإمام أبى داؤد سليمان بن الأشعث السجستانى (ت ٢٧٥هـ)

٦- جامع الترمذى - تاليف الإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى (ت ٢٧٩هـ)

٧- سنن النسائى - تاليف الإمام أحمد بن شعيب النسائى (ت ٣٠٣هـ)

٨- سنن إبن ماجة - تاليف الإمام محدم بن يزيد إبن ماجة القزوينى (ت ٢٧٣هـ)[١٩]

و أضف إلى ذلك "مشكاة المصابيح" للإمام ولى الدين

محمد بن عبدالله الخطيب العمرى التبريزى (ت ٧٤٣هـ) الذى جمع الأحاديث والسنن المروية فى هذه الكتب المذكورة فى تاليف واحد بحذف الإسناد والمكررات وبالإشارة إلى كل كتاب من هذه الكتب وبعض الكتب الأخرى أيضاً التى وردت فيها الأحاديث - فبذلك سهل على عامة المسلمين الإستفادة من الأحاديث والسنن النبوية بقرائة هذا الكتاب ودراسته للضرورات العامة وللمعلومات الأساسية عن الأحاديث والسنن النبوية -

والجدير بالذكران نخبة من المستشرقين، ونمنك و منسنج وغير هما المنتمين إلى بلدان الأقليات المسلمة، قاموا بتصنيف المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى فى عدة مجلدات ضخمة لتسهيل الإستفادة العلمية من الأحاديث والسنن المروية فى الكتب المذكورة وبعض الكتب الأخرى. والأمة مديونة لهم لهذه الخدمة العلمية الجليلة مع كثير من الخدمات الأخرى. وللاقليات المسلمة فى العالم كله حق إن تفتخر بمثل هذه الخدمات المباركة التى صرف فيها اعمهاربم العلماء والباحثون من المستشرقين - والتى لانرى لها مثالا فى بلدان العالم الإسلامى حتى فى تقديم المعجم المفهرس المذكور - وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم -

ولا حاجة لنا إن نشير إلى أنه لابد من الإتقان فى اللغة العربية لقرأة كتب الحديث المذكورة وغيرها وفهم الأحاديث والسنن النبوية كلها والعمل بها فى دوائر الحياة الفردية والإجتماعية فى جميع مجتمعات الاقليات المسلمة وغيرها -

فالسنة النبوية واجبة الإتباع مع القرآن الكريم وهى الأساس الثانى للدين والشريعة بعد القرآن - وكتب الأحاديث والسنة

والتقارير النبوية كلها مدونة باللغة العربية الفصحى - ويجب تعلم هذه اللغة على كل مسم و مسلمة فى بلدان الأقليات المسلمة وغيرها إلى أقصى حد مستطاع -

والجدير بالذكر إن الحديث النبوى أيضاً ادى دورا هاما فى توحيد لهجاتها. فكما أثرالقرآن أثره الشديد فى جميع اللهجات العربية حتى اندمجت كلها فى لهجته التى هى لهجة الحجاز ولغة قريش وأهل مكة أثر كلام الرسول عليه السلام فى اللغة العربية تاثير ا عميقا حتى إعترف بكونه أساسا ثانيا للغة العربية الفصحى مع القرآن ولغته -فكان النبى عليه السلام ذا معرفة تامة وخبرة واسعة باللهجات العربية وكانت لغته افصح اللغات واللهجات كلها لانه كان أفصح العرب الذى ولد فى قبيلة قريش فصيحة اللسان ونشأ فى بنى سعد الذين اشتهروا بفصاحة لغتهم وبداوة لهجتهم - ثم أدبه وبه فلحسن تأديبه - فتركت كل قبيلة عربية لهجتها الخاصة بلا أجبار ولا اكراه إتباعا للغة القرآن الفصحى ولغة أفصح العرب والعجم ﷺ -

وكفى بناشرحاودليلا على ما قلنا ما قاله الا مامان الأديبان الجليلان السيوطى والجاحظ فى اهمية القرآن والحديث من الناهية اللغوية والأدبية -

فقال السيوطى:

"فكما إن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة والمترسلين وليس بترسل وأعجامه الشعراء أشد بر هانا - الا ترى العرب كيف نسبوا النبى ﷺ إلى الشعر لما

غلبوا وتبين عجزهم فقالوا هو شاعر لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وعجامته وأنه يقع منه ما لا يلحق والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) اى لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل. ٢٠

ولعل كلام الجاحظ أفضل ما قيل فى وصف كلام الرسول عليه السلام ـ فما أحسن ما قاله فى البيان:

" هو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف ،وكان كما قال تبارك وتعالى: قل يا محمد" وما انا من المتكلفين"ـفكيف وقد عاب التشديق وجانب اصحاب التقعير ، وإستعمل البسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق الاعن ميراث حكمة ـ ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتاييد، ويسر بالتوفيق ـ

وهذا الكلام الذى القى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن اعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم ولا بارته له حجة، ولم يقم له خصم، ولا افحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصيرة ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ولا يحتج الا بالصدق ولا يطل الفلج الا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز ولا يطئى ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قسط اعم نفعا ولا اصدق لفظا ولا اعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا ابين فى

فحواه من كلامه ﷺ كثيراً[٢١]۔

هذا وقد عبر الإمام إبن تيمية رحمه الله عن شعور العلماء بوجوب تعلم اللغة العربية لفهم الكتاب والسنة قائلا:

إن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب ،فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلاّ باللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب [٢٢]۔

ويطابق هذا الراى قول الإمام الثانى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

"تعلموا العربية فانها من دينا"[٢٣]۔

فأمر الله سبحانه وتعالى بإتباع الرسول عليه السلام سيرة وسنة ۔ وأمر الرسول عليه السلام جميع المسلمين إن يتمسكوا بالقرآن والسنة النبوية حتى لا يزالوا مهتدين ۔ وجعلت الصحابة والعلماء بعدهم لغة القرآن والحديث واجبة التعلم لفهم الكتاب والسنة و۔مروا بتعلمها ۔ فلا بد لكل مسلم يعيش فى دولة من دول الاقليات المسلمة وغيرها أن يتعلم لغة القرآن والحديث النبوى ويتقنها لفهم الكتاب والسنة والعمل بهما۔

٣ ۔ لغة العبادات الإسلامية :

يحتاج كل مسلم إلى اللغة العربية فى دول الاقليات المسلمة وغيرها لاداء الصلاة المفروضة عليه خمس مرات فى اليوم والليلة ۔ كما يحتاج اليها لاداء صلاة الجمعة والعيدين والتهجد والتراويح والجنازة وغيرها من الصلوات الواجبة والنافلة ۔ وتشتمل هذه الصلوات كلها على الآيات القرآنية والعبادات العربية المسنونة

الاخرى - ويجب على كل مسلم اداء الصلوات الخمس اليومية بدأ من طفو لته إلى شيخوخته ومن بلوغه إلى لقاء ربه مرة بعد مرة وكرة بعد كرة فجراً وظهراً و عصراً ومغرباً وعشاءً ونهارا فى كل يوم وشهر وعام - ويقتضى ذلك كله تعلم الفاتحة وسور القرآن الاخرى مع تعلم الكلمات العربية المسنونة المختلفة المقرؤة فى الصلاة - ولا يكفى تعلم الآيات والكلمات المسنونة قرأة فقط بل يحتاج كل مسلم إلى فهمها ايضاً حتى يفهم ما يقول وبما يعبد الله سبحانه وتعالى وهو لا يحب-لنفسى أن يخاطبه أحد بكلمات لا يفهمها ولا يقدر على إفهامها اياه - فكيف برب العالمين يخاطبنه المصلى بكلمات بدون تفهمها والتمكن من لغتها ومعناها - وقس على ذلك الأذان والا قامة للصلاة -

ويقو ل الا زهرى، العالم واللغوى الشهير:

إن تعلم العربية التى يتوصل بها إلى تعلم ما تجزئى به الصلاة من تنزيل وذكر فرض على عامة المسلمين - وان على الخاصة التى تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم الاجتهار فى تعلم لسان العرب ولغاتها التى بها التوصل إلى معرفة ما فى الكتاب (القرآن)ثم فى السنة والآثار وأقاويل أهل التفسير من الصحابة والتابعين من الألفاظ الغريبة، فإن الجهل بذلك جهل بجملة علم الكتاب [٢٤]

ويحتاج كل مسلم إلى الشهادة بالتوحيد الالهى والرسالة المحمدية قبل كل شئ - ولا يمكن النطق بالشهادتين وجميع الكلمات المتعلقة بالعقيدة والايمان والإسلام إلاّ باللغة العربية الفصحى وجوبا وإستحبابا واتباعا للرسول عليه السلام وأصحابه الكرام عليهم رضوان -

والكلمات والعبارات المتعلقة بجميع العبارات مفروضة ومسنونة باللغة العربية الفصحى - فاذكر على سبيل المثال الحج - يذهب الحاج إلى مكة المكرمة وهى مر كز الإسلام والعربية بكعبتها المشرفة التى يتوجه اليها كل مسلم فى كل صلاة من صلواته اليومية اينما كان فى الدول المسلمة والاجنبية -

ثم يحتاج إلى تلبية الحج باللغة العربية كما يحتاج إلى الكلمات العربية المسنونة الاخرى المتعلقة بمناسك الحج - واذا حاول فهم خطبة الحج يعرفة وإذا حاول فهم المواعظ والخطب إثناء أقامته بالحجاز لم يتمكن منها إلاّ بمعرفة اللغة العربية -

وكذلك تسهل له معرفة اللغة العربية زيارة المدينة المنورة وقبر الرسول عليه السلام والشيخين أبى بكر وعمرؓ معه، وزيارة قبور إمهات المؤمنين والإمام الثالث عثمان بن عفان وآل الرسولؐ وجميع الصحابة والصالحين المدفونين فى جنة البقيع وساحة أحدؓ - كما تسهل له معرفة اللغة العربية زيارة المعالم التاريخية والثقافية المنتشرة فى أرض الحجاز والأراضى العربية كلها -

واضف إلى ذلك حاجة الحاج والمعتمرين إلى اللغة العربية للتعرف على إخوانه الوافدين إلى الحجاز من كل فج عميق ومن كل دولة من دول الاقليات المسلمة وغيرها - فلا توجد لغة مشتركة بين الناطقين باللغات الوطنية والمحلية والاجنبية المختلفة إلاّ لغة القرآن والإسلام - فإذا ضعفت معرفة الحجاج والمعتمرين باللغة العربية أضاعوا فرصة الارتباط المباشر وتبادل الآراء والأفكار وتوثيق الروابط الأخوية والتعبير عن المشاعر القلبية والعواطف الصادقة فيما بينهم - وهذه خسارة كبرى لابناء الأمة الموّحدة - ولا توجد مثل هذه الفرصة فى اى بقعة من بقاع الأرض غير هذه البقعة

المباركة المركزية مهبط القرآن والسنة - مؤتمر عالمى سنوى فريد، وإجتماع عالمى سنوى عظيم، واللغة مفقودة لعدم الاعتناء بها أو نضعف المعرفة بها.

ويدل ذلك كله على أهمية اللغة العربية بالنسبة للعبارات الإسلامية إضافة إلى أهميتها بالنسبة للقرآن والسنة.

٤ - لغة الثقافة الإسلامية

نرى اللغة العربية موجودة وشائعة كلغة مستقلة على المستوى الثقافى فى كل مجتمع من مجتمعات الاقليات المسلمة وغيرها - فيسمع كل مولود مسلم صوت الأذان و الإقامه فى أذنيه فور ولادته، ثم يسمى عادة باسم عربى إسلامى - ويسمع الأذان للصلاه خمس مرات فى اليوم والليلة كما يسمع الكلمات العربية الكثيرة و يستعملها كثيرا فى حياته اليومية - مثلا بسم الله الرحمن الرحيم والسلام عليكم و سبحان الله والحمد لله وما شاء الله وإن شاء الله وجزاك الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ با الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والإيمان والإسلام والكلمة، والصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد والنكاح والجنازة والقرآن والحديث والفقه والمشرك والكافر والمنافق والموت والحياة والفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء والدين و الدنيا والمسجد والمنبر والسحر والإفطاروالحشر والنشر والحلال والحرام - ثم يسمع آلاف الأسماء العربية للرجال و النساء والأشياء من حين إلى آخر - ومنها أسماء الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين - سلام الله عليهم

اجمعين ـ

ثم يبدأ دراسته ناطقا بكلمة الإسلام (لاإله إلاّ الله ـ محمد رسول الله)ـ كما يتعلم اداء الصلاة وتلاوه القرآن باللغة العربية قبيل التحاقه بالمدرسة الإبتدائية أو بعيده ـ ثم يعرف أن لغة جميع الشعاعر الدينية من المهد إلى اللحد هى العربية ـ

وبذلك كله يتعلم كل مسلم آلاف الكلمات العربية ويتمكن من معرفة اللغة العربية وابجد يتها إلى حد ما ـ ولو كان ذلك بدون الشعور بمعرفتها إلا قليلا ـ وكل هذا يدل على تواجد مستقل للغة العربية فى محيط الثقافة الإسلامية المتمكنة من كل مجتمع من مجتمعات الاقليات الإسلامية وغيرها ـ

وكل مسجد ومدرسة ومعلم من المساجد والمدارس والمعالم الإسلامية فى دول الاقليات الإسلامية مظهر من مظاهر اللغة والابجدية العربية والثقافة الإسلامية على سواء ـ وكذلك يوجد المصحف الشريف أو القرآن العربى فى كل بيت من بيوت المسلمين فى دول الاقليات المسلمة ـ كما يوجد بعض الكتب العربية الأخرى مع الكتابات والنقوش العربية الإسلامية ـ وكل ذلك يعلن بوجود الثقا فة الإسلامية فى كل بيت ومجتمع من البيوت والمجتمعات الإسلامية فى الدول الاجنبية ـ

فاللغة العربية التى وسعت كتاب الله ـ لفظا وغاية ـ كما قال حافظ إبراهيم، وسعت أيضاً حضارة الإسلام خلال أربعة عشر قرنا علما وأدبا وفكرا وتاريخا ـ واستطاع علماء العرب ومفكروهم ومترجموهم ـ قديما ـإن يستولدوها كلمات ومعانى جديدة من لغات اخرى، عن طريق التعريب والاشتقاق، هذه اللغة الولود الودود، الغنية السخية ليست عاجزة عن مسايرة ركب العلم

الحديث ٢٥

٥ ـ لغة العلوم الإسلامية ومدارسها

ليست العربية لغة القرآن والحديث ولغة العبارات والثقافة الإسلامية فقط بل هى لغة العلوم الإسلامية كلها من التفسير وشرح الحديث والفقه والتصوف والتاريخ والسيرة وغيرها ـ والذى يريد أن يفهم تفسير الآيات والأحاديث و يعرف المسائل الفقهية المتعلقة بحياته الفردية والاجتماعية لا بدله ان يجيد اللغة العربية ـ وإذا اراد أن يدرس سيرة النبى عليه السلام واصحابه وتاريخ الإسلام وكتب التصوف اشكل عليه ذلك إذا لم يكن على معرفة تامة باللغة العربية ـ لأن المراجع والمصادر الأساسية المتعلقة بهذه العلوم وغيرها من العلوم الإسلامية كلها مؤلفة باللغة العربية ـ ولا شك أنه يمكن له ان يستفيد من هذه العلوم إلى حدما عن طريق ترجمها باللغات المختلفه ولكنه لا توجد تراجم جميع هذه الكتب التى تعد بالمئات والآلاف باللغات الاخرى ـ والا قليات المسلمة فى البلدان الاجنبية ناطقة باللغات الوطنية والمحلية والاجنبية الكثيرة من الصينية واليابانية والهندية والروسية إلى الإسبانية والفرنسية و الإنجليزية ولا توجد تراجم جميع المؤلفات فى جميع هذه اللغات وغيرها من اللغات الكبرى والصغرى التى تعد بالمئات وينطق بها ابناء الاقليات ـ ثم هل يستوى الذين يدرسون هذه العلوم بلغتها الأصلية والذين يعولون على التراجم ـ

وكان الرسول ﷺ ثم الصحابة من بعده المرجع فى

تفسير القرآن، ثم جائت الحركة العلمية الأولى عند المسلمين التى شملت فى مدة وجيزه جميع العلوم التى عرضها العالم القديم، فما اتصل بالقرآن كان اولها ظهورا حيث ظهرت كتب (غريب الحديث) وكان آخر الظواهر التى امدت الدراسات اللغوية بالروافد ظاهر ه التدوين العلمى حيث وضعت معظم العلوم العربية فى اواخر اعصر الاموى وأوائل العهد العباسى كعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول والنحو والرياضة والمنطق والكلام والفلسفة الخ[٢٦]۔

وصدق من قال:

إن الدفاع عن اللغة العربية الفصحى هو دفاع عن القرآن، وعن الدين الإسلامى ـ قرآنه وحديث رسوله وتاريخه وتراثه الفقهى، وذخائره الفكرية والأدبية الخالدة الماجدة۔

واللغة العربية التى حملت هذا الميراث الضخم الفخم المتطاول على الزمن من حضارة الإسلام الدينية والفكرية و العلمية منذ اربعة عشر قرنا،لا يعجزها بل لم يعجز ها فعلا ان تمضى فى رسالتها البيافية والتاريخية والى الابد الابيد[٢٧]۔

وخلاصة القول يحتاج كل مسلم الى اللغة العربية قرآنا وسنة و عبادة شريعة وعلما وادبا وحضارة وثقافة ـ فلذلك نجد آلاف المساجد والمراكز والمدارس والمعاهد الإسلامية مشتغلة فى القارات الخمس ـ ولا تزال هذه المساجد والمدارس تلعب دورا هاما فريدا فى نشر اللغة العربية والعلوم العربية الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها على نطاق واسع ـ وأروع مثال لها "دارالعلوم، ديوبند بالهند" التى بدأ التدريس بها بعناية مؤسسها

الشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله فى كوخ صغير بمدرس وطالب فقط، وذلك فى سنة ١٢٨٣هـ - ثم كان من فضل الله وصدق عزائم القائمين بها ان ازدهر المعهد وترقى رقيا باهرا - وافتتحت معاهد دينية اخرى فى مختلف مدن الهند اصبحت حصونا للدين منيعة فى تلك الأيام المظلمة التى اتسع فيها الخرق على الرائق واصبح القابض على الدين كالقابض على الجمر[٢٨] -

ولا شك ان دارالعلوم ديوبند تعتبر من اكبر الجامعات الإسلامية مع الجامعة الأزهرية منذ اكثر من قرن من حيث تاثير ها وعدد المتخرجين منها ومن آلاف فروعها فى الهند وخارجها والذين يعدون بمئات الآلاف المشتغلين بنشر العربية والدين ليس فى الهند فقط بل فى بنغلاديش وباكستان وافغانستان و تركستان والبلدان الإسلامية والاجنبية الاخرى - وكفى بالاقليات فخرا وجودها فى دولة من دول الاقليات المسلمة -

ولا بد من ذكر "ندوة العلماء" فى مدينة لكهنؤ الهند ية التى لا تزال مثالا نادرا فى اتقان اللغة العربية وعلومها الإسلامية - تأسست سنه ١٣١١هـ/١٨٩٣ هـ، ثم اسس بنيان دار العلوم التابعة لها بعد خمس سنين[٢٩] واعتنى القائمون بها بتدريس اللغة العربية اعتناء عظيما - فانهم جعلوا تدريس لغة القرآن نطقا وكتابة من اهم ما يشتمل عليه منهاج دارعلومها - وقد رزقهم الله نجاحا باهرا فى هذا الشأن[٣٠] -

وقلما نجد مثلا لدارالعلوم، ديو بند وندوة العلماء، لكهنؤ حتى فى بلدان الاكثريات المسلمة - وذكرنا هما هنا إشارة إلى إن المدارس الإسلامية فى بلدان الاقليات المسلمة لا تزال تؤدى دورها المعجز فى نشر الإسلام ولغة القرآن مالم يمكن لكثير من

البلدان الإسلامية إن تقوم به - وتستطيع الاقليات الإسلامية المنتشرة فى القارات الخمس - كما ثبت بهذين المثالين - ان تقود العالم الإسلامى بمهارتها فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية - وذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم -

٦- لغة الأمة العالمية :

لا تزال اللغة العربية لغة الأمة الإسلامية المشتركة العالمية منذ اكثر من أربعة عشر قرنا - فهى لغة عالمية مشتركة لابناء الاقليات المسلمة فى القارات الست كما هى لغة الأمة فى بلدان الأكثريات المسلمة -

وهى لغة دينية وعالمية وحيدة تستطيع ان تربط أبناء الأمة المسلمة و علمائها الناطقين باللغات الوطنية والمحلية والاجنبية المختلفة فى بلدان الاقليات المسلمة - وليست هناك اية لغة مشتركة اخرى نعتبرها لغة الإرتباط بين مئات الملايين من المسلمين فى دول الاقليات المسلمة المتنوعة اللغات والالسنة حتى إذا نظرنا إلى اللغات العالمية الاخرى - الإنجليزية و الفرنسية والروسية والاسبانية - لانراها سائدة الا فى دوائرها و اقطارها الخاصة - فاللغة الإنجليزية سائدة فى الولايات المتحدة الاميريكية وكندا وبريطانيا وآستراليا والدول الآسيوية والافريقية المختلفة - كما تسود اللغة الفرنسية فى الدول الاوروبية و الافريقية الاخرى - وتوجد اللغة الاسبانية شائعة فى اغلبية الدول الواقعة فى امريكا الجنوبية اواللاتينية اضافة إلى سيادتها اسبانيا - و كذلك تسود اللغة الروسية فى روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتى سابقا -

ونجد اللغة العربية فى مثل تلك الظروف شائعة بين المسمين فى اغلبية البلدان الاجنبية المناطقة باللغات المذكورة المختلفة وغيرها من اللغات الوطنية والمحلية المتنوعة - فهى لغة الارتباط بين علماء الأمة الإسلامية الموجودين فى جميع دول الاقليات المسلمة على وجه اخص مع كونها لغة الارتباط بين عامة المسلمين إلى حدما - ونرى آلاف المسلمين فى بلدان الاقليات المسلمة ناطقين باللغة العربية الفصحى رغم بعد بلدانهم عن الدول العربية والإسلامية وكثره الصعوبات والمشاكل التى يواجهونها فى سبيل تعلم هذه اللغة - ولا يزال الإهتمام باللغة العربية يتزايد يوما فيوما فى بلدان الاقليات المسلمة ويتعلمها المسلمون على نطاق واسع ،كما نرى حرصهم على تعلم اللغة الدين والأمة المشتركة أكثر من حرص كثير من المسلمين فى الدول المسلمة، ويدل على كون العربية لغة مشتركة بين الاقليات الإسلامية فى القارات الخمس انها لغة التدريس فى الاف المساجد والمدارس والكتاتيب الإسلامية فى جميع هذه البلدان -

وقد ارى الإسلام دورا اساسيا فى تحويل لغة العرب إلى لغة عالمية قديما وحديثا ، كما قال الدكتور إسرائيل ولفنسون :

"إن الإنقلاب العظيم الذى أصاب اللغة العربية انما حدث عقب ظهور الإسلام فقد أنقلبت إلى لغة علمية تتكلم بهاشعوب كثيرة جدا[٣] -

وقال المؤرخ العربى المسيحى الشهير جرجى زيدان مشيرا إلى أهمية العربية الدينية إضافة إلى أهميتها كلغه الشعوب العربية :

الذين يتعلمون العربية للمعاملات الدينية

وهم المسلمون فى أكثر إنحاء المعمورة فى فارس وخراسان وافغانستان وتركستان والهند والصين وجزائر الهند الشرقية وسائر البلاد التى دخلها الإسلام فى القارات الخمس[٣٢]-

واضيفت اللغة العربية إلى اللغات الرسمية لهيئة الأمم المتحدة والمنظمات والهيئات التابعة لها بعد عام ١٩٨٠م - فصارت بذلك لغة علمية معترف بها رسميا مثل الإنجليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والصينية فى الأمم المتحدة - كما إنها لغة رسميَ فى منظمة المؤتمر الإسلامى ومنظمة الوحدة الافريقية وغيرهما مثل الانجليزية والفرنسية - فليست هى الآن لغة الدول والأقليات الإسلامية فقط بل هى لغة دولية عامة - وازداد الإهتمام بها بعد ذلك فى بلدان الأقليات المسلمة على المستوى الرسمى والشعبى نظرا إلى أهميتها العالمية و التجارية والسياسية والثقافية إضافة إلى كونها لغة الأقليات المسلمة فى هذه البلدان -

فلذلك كله يجب على كل مسلم من مسلمى البلدان الاجنبية أن يتعلم هذه اللغة ويتقنها كلغة الأمة العالمية حتى لا تبقى حواجزاللغة بين أبناء الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها -

٧- أم لغات المسلمين :

تتأثر لغات المسلمين فى بلدان الأقليات المسلمة باللغة العربية كما تتأثربها اغلبيه اللغات فى العالم الإسلامى - وتكتب أكثر اللغات الهامة من لغات العالم الإسلامى بالابجدية العربية

إلى عصرنا الحديث - وتاثير اللغة العربية فيها تاثير واضح عميق يظهر فى آلاف الكلمات والمصطلحات الماخوذة منها - وعلى راسها اللغة الفارسية والأردية والتركية الكشفرية والاندوملاوية والآزرية والكردية والبلوشية والبنجابية والسندية والبشتوية والبراهوية والكشمرية والشنائية والبلتية الخ -

أما اللغات الاخرى التى تكتب الآن بالابجدية اللاتينية اوغيرها فكانت كلها تكتب بالابجدية العربية لعدة قرون حتى استبدلت ابجديتها فى عصر المستعمرين ومع ذلك تتاثر بالعربية تاثرا عميقا حتى الآن - وتراثها القديم كله مكتوب بالحروف العربية كما إن هناك محاولات كاحياء الحرف العربى لكتابتها فى دول آسيا الوسطى وافريقيا وغيرها من الدول -

وإذا اراد أحد من ابناء الأقليات المسلمة إن يتعلم لغات العالم الإسلامى للضرورات المختلفة سهل له ذلك إذا كان على معرفة باللغة العربية التى هى أم هذه اللغات -

و إذا اراد أبناء الأقليات المسلمة أن يتمكنوا من كتابة جميع لغاتهم بالابجدية العربية أيضا للضرورات الدينية والثقافية اضافة إلى كتابتهم بالابجديات الوطنية وجب عليهم إن يتعلموا اللغة العربية وابجد يتها - ولها فوائد ها الثقافية والدينية - كما اراد التتار فى بولندا وتاتارستان الروسية وغيرهم من المسلمين فى بلدان الأقليات المسلمة -

و إذا كانت الدول الغربية استطاعت تحويل الابجدية العربية إلى اللاتينيه فكيف لا يمكن إن تكتب اللغات الغربية ولغات الأقليات الإسلامية بالابجديتين العربية والوطنية معاً -

و تدل كل نقطة من هذه النقاط على اهمية اللغة العربية

وابجديتها لابناء الأقليات المسلمة - وما احسن ما قاله سيد قطب المفكر الإسلامى الشهير فى تبيين علاقة العربية القوية بكل مسلم من غير العرب :

"والمماليك الذين حموا هذه البقعة من التتار، لم يكونوا من جنس العرب، إنما كانوا من جنس التتار، ولكنهم صمدوا فى وجه بنى جنسهم المهاجمين حمية للإسلام، لانهم كانوا مسلمين - صمدوا بايحاء من العقيد ة الإسلامية، وبقيادة روحية إسلامية من الإمام المسلم (إبن تيمية) الذى قاد التعبء ة الروحية، وقاتل فى مقدمة الصفوف - ولقد حمى صلاح الدين هذه البقعة من اندشار العروبة منها والعرب واللغة العربية ..وهو كردى لاعربى .....ولكنه حفظ لها عروبتها ولغتها حين حفظ لها إسلامها من غارة الصليبين .... وكان الإسلام فى ضميره هو الذى كافح الصليبيين كما كان الإسلام فى ضمير الظاهر بيبرس، والمظفر قطز، والملك الناصر ، هو الذى كافح التتار المتبر برين[٣٣] -

و خلاصة القول فى أهمية اللغة العربية الأقليات المسلمة انها لغة القرآن والحديث والعبادات الإسلامية مع كونها لغة العلوم والثقافة والأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان،فلذلك يجب على كل مسلم فى كل دولة من دول الأقليات المسلمة ان يعتبرها لغته الاولى قبل لغته الأم ويجتهد فى سبيل تعلمها واجادتها نطقا وكتابة وفهما - كماانه يجب عليه - فردا وجماعة - ان يحاول

نشرها بين إخوانه المسلمين وغيرهم من المواطنين على نطاق واسع.

وكذلك ينبغى له ان يطالب باضافتها إلى المقررات الدراسة الإبتدائية والثانوية فى مدارس بلاده كمادة اجبارية للطلبة المسلمين واختيارية لغيرهم إذا أمكن له ذلك - وذلك مع محاولات اضافتها إلى اللغات الرسمية والوطنية والتعليمية فى بلاده كلغة الأقلية المسلمة ولغة عالمية هامة - وكل ذلك بمساعدة إخوانه المسلمين وغيرهم من الواطنين إذا امكن له ذلك - والله الموفق.

☆☆☆

الهوامش

١- القرآن (يوسف:٢)

٢- القرآن (الشعراء:١٩٢-١٩٥)

٣- القرآن (الحجر:٩)

٤- احمد محمد جمال : اللغة العربية - لسان وكيسان ، فى مجلة البحوث الإسلامية لرئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد) بالرياض، العدد ٠رجب شعبان رمضان ١٣٩٥٩هـ، ص ٨١ - ٨٢-

٥- نفس المرجع، ص ٨٢ ٠نقلا عن مقدمة كتاب الصحاح للاستاذ العطار٩

٦- دكتور إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، مصر، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٩، ص٢١٥-

٧- أحمد محمد جمال: اللغة العربية لسان وكيان، ص٨٣ (نقلاعن الدكتور حسين نصار ما قاله فى "المعجم العربى")

٨- شهاب الدين الآلوسى:تفسير روح المعانى، مصر، ادارة الطباعة المنيرية، ١٣٥٣هـ، المجلد ١٩،ص ١٥٠-

٩- إبن عبدربه : العقد الفريد، مصر، المطبعة الجمالية، ١٣٣١هـ، المجلد الثالث، ص ٣٨٢-

١٠- دكتور محمود محمد عبدالله: اللغة العربية فى باكستان، إسلام آباد، وزارة التعليم الفيدرالية، ١٩٨٤م، ص٥-

١١- آر .اے نيكلسون :تاريخ العرب الادبى، ص ٢٤ - ٢٥ (مقدمة)

R. A. nicholson: A Literary history of the Arabs, Cambridge University Press, 1969/ P. x x Iv-x x v.

١٢- فيليب كے حتى: تاريخ العرب، ص ٧٥٥

Philip K. Hitti: History of the Arabs, London Mac-Millan & Company limited, 1956,P.755.

١٣- القرآن (الحشر:٧)

١٤- القرآن (الاحزاب: ٢١)

١٥- القرآن (آل عمران: ٣١)

١٦- الخطيب التبريزى: مشكاة المصابيح، دمشق، منشورات المكتب الإسلامى، ١٣٨٠هـ الجزء الأول، ص ٦٦ (برواية الإمام مالك فى الموطا)

١٧- نفس الراجع (كتاب الايمان - باب الاعتصام بالكتاب والسنة برواية "شرح السنة" "والأربعين" للنووى)

١٨- البخارى: الجامع الصحيح (كتاب الإيمان)

١٩- راغب الطباخ: الثقافة الإسلامية، ترجمه إلى اللغة الأردية السيد افتخار احمد البلخى باسم "تاريخ إفكار وعلوم إسلامى" ،لا هور، إسلامک ببليكيشنز لميتد، ١٩٧٦م، المجلد الاول ص ٤٢٤-٤٢٥-

٢٠- جلال الدين السيوطى: المزهر، مصر ، المكتبة، الازهرية، ١٣٢٥هـ الجزء الثانى، ص٢٩٣-

٢١- الجاحظ: البيان والتبيين، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٥هـ، الجزء الثانى، ص٢٨-٢٩-

٢٢- احمد محمد جمال: اللغة العربية لسان وكيان فى مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، العدد(رجب شعبان رمضان) ١٣٩٥هـ، ص٨٢-

٢٣- راجع الدكتور محمود محمد عبد الله: اللغة العربية فى باكستان ص٣-
٢٤- أحمد محمد جمال: اللغة العربية لسان وكيان فى مجلة البحوث الإسلامية الرياض، رجب شعبان رمضان ١٣٩٥هـ، ص ٨٢(نقلا عن الامهرى ماقاله فى مقدمته)
٢٥- نفس المرجع، ص ٨٩-
٢٦- نفس المرجع، ص ٨٣ - ٠نقلا عن الدكتور حسين نصار ماقاله فى " المعجم العربى)
٢٧- نفس المرجع، ص ٨٨
٢٨- مسعود الندوى: تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند، بيروت، دار العربية ١٣٧٠هـ، ص ١٩٢-
٢٩- نفس المرجع، ص ١٩٧ ٠ الهامش رقم ١)
٣٠- نفس المرجع ، ص ١٩٩-
٣١- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص ٢١٤
٣٢- حرجى زيدان ء تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧م، المجلد الاول ،ص ٤٢-
٣٣- سيد قطب: المستقبل لهذا لدين، الولايات المتحدة الاميريكية،(غيرى - انديانا) الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ١٩٧٠م، ص ١٣١-١٣٢-

☆☆☆

أبو الاسود الدؤلى والنحو العربى

محمد نعمان حسين☆

مقدمة :

فى هذا التقرير محاولة لالقاء بعض الاضواء على شخصية رائد من رواد القافلة الأولى فى ثقافتنا العربية الاسلامية بعامة وفى تاريخ النحو العربى بخاصة، وعلى الرغم من شهرة أبى الاسود الدؤلى فى أوساط المهتمين بالتراث العربى الاسلامى - على الأقل - الا انه لم يعط حقه من البحث والدراسة ، مما كان يد فعنى الى محاولة استجلاء بعض جوانب شخصيته.

وقد حاولت قدر المستطاع ان اتتبع معظم المصادر والمراجع التى تحدثت عن مترجمنا، واطلع عليها، وهذه المصادر وان خيل الى المرء ان منها مادة طيبة، الاانها مع بالغ الاسف يمكن الاستغناء عن كثير منها نظراً، لأن كثيراً منها تتناقل روايات بعينها فلا تضيف جديداً، ولأن بعضها يقتصر فى حديثه عن أبى الأسود على ايراد بعض أبيات من الشعر مما هو موجود فى ديوانه،

☆ قسم القرآن والدراسات الإسلامية ،الجامعة الاسلامية كو ستيا بنغلاديش

فليست بذات غناء في هذا السبيل، أو تشير إلى حادثة بسيطة في حياته سبق ان تحدث عنها مؤلفون متقدمون زمنيا، وقد سكتت المصادر كلها عن ذكر جوانب هامة من حياة أبي الأسود، مما يضطرنا في غير موضع ان نتجاوز عن نواح لها قيمتها في تكوين صورة شاملة عن الرجل.

نعم، ان النحو العربي بأوليته ونشأته يرتبط عادة باسم أبي الأسود، ولكن عمله في هذا المجال هو موضع اختلاف كبير، فقد اختلف المؤرخون فيه من حيث حقيقته وابعاده، وهل كان مارسمه من النحو من عند نفسه، ام بتلقين من غيره ؟ وما كان السبب الذي بعثه إلى القيام بعمله هذا؟ وفي أي زمن قام به؟ ثم بعد ذلك كله ـ هل كان عمله عربياً خالصاً، أم انه تأثر فيه بثقافات أجنبية؟

وعلى كل حال ، قد مست الحاجات الى استكشاف ذلك، فلذا رأينا ذكره معه جديراً، فسنورده بما له وما عليه بقدر الامكان.

اسمه ونسبه:

قد رأينا المؤرخين وكتاب التراجم يختلفون في اسمه اختلافاً كبيراً، فأكثر هم ذكر أن اسمه ظالم بن عمرو[١]، وقال بعضهم: بل هو عمرو بن ظالم[٢]، وذهب غيرهم إلى أنه عمرو بن سفيان بن ظالم[٣] وقيل: هوظالم بن ظالم[٤]كما قيل: انه ظالم بن عمرو بن ظالم[٥].

ولا يقتصر الاختلاف بينهم على إسمه وإسم أبيه ، فانهم يختلفون أيضاً فى سلسلة نسبه، إلا أن اكثرهم يذكرون، أنه ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدى بن الدئل، وقيل ابن عمرو بن حلبس وقيل حليس، وهو من بنى كنانة[٦] فيكنى بأبى الأسود وينسب إلى الدئل ـ بضم الدال وكسر الهمرة فيقال: دؤلى[٧] بضم الدال وفتح الهمزة لئلا تتوالى الكسرات، وربما قالوا: الدؤلى[٨] ـ بغير الهمزة ، فيقلبون الهمزة واواً، وينسبه اخرون فيقولون: الديلى[٩] بكسر الدال وسكون الياء، عند مايقلبون الهمزة ياء حين انكسرت، والدئل إسم دابة بين ابن عرس والثعلب، وكان جده الأعلى قد سمى به.

نشأته وحياته :

تكاد تكون نشأة أبى الأسود وسيرة حياته الأولى مجهولة لدينا، فمعظم المصادر التى بين أيدينا لا تتحدث عن هذا الموضوع، وكل مانجد فى الكتب القليلة التى تحدثت عن حياته الأولى لا يتجاوز اشارات عابرة لاتعين الباحث على تكوين فكرة، ولو جزئية عن أبى الأسود فى أدوار حياته الأولى.

وندر من المؤرخين من اشار إلى مولده ، وممن فعل ذلك أبو الطيب اللغوى، يقول: كان أبو الأسود ـ فيما زعموا ـ ولد فى الجاهلية[١٠] ويرجح عندنا أن يكون هذا الزعم صحيحاً، فعلى الرغم من اختلاف الرواة فى تحديد سنة وفاته، فانهم يجمعون على أنه توفى وله من العمر خمس وثمانون سنة[١١] وسواء أخذنا

بالرواية التى تقول: انه توفى عام ٦٩هـ[١٢] أو بتلك التى تجعل وفاته سنة ٦٧ هـ[١٣]، أو برواية تحدث، انه توفى قبل ذلك[١٤]، فانه يكون قد ولد قبل الإسلام . وعلى هذا لانستطيع أن نقبل ما روى عن أبى الأسود حيث يقول: ولدت عام الفتح[١٥]، لأن هذا العام يوافق السنة الثامنة للهجرة.

و هكذا لم نجد شيئاً ذا قيمة عن نشأة أبى الأسود. فكل مايعرف عنه تقريباً فى هذه الفترة أنه ترك قبيلته وعاش فى بنى هذيل، ثم انتقل إلى بنى قشير بعد أن صاهرهم[١٦] ويذكر أبو عبيده (ت: ٢١١هـ) ان ابا الأسود ادرك أول الإسلام وشهد بدرا مع المسلمين إلا أن ابا الفرج الاصفهانى يعلق على ذلك بقوله : وما سمعت بذلك عن غيره[١٧]، وعلى كل حال ،فان هذه الرواية مردودة، لأن أبا الأسود لو حضر بدراً كان من كبار الصحابة، ولكنه معدود فى التابعين[١٨].

عند ما اسست البصرة، اتخذ منها أبو الأسود دار اقامة، واستقر فيها حتى وفاته، ويقال: ان عمر بن الخطاب رضـ قد استعمله عليها ، ثم استعمله من بعده عثمان بن عفان رضـ[١٩] على أن أبا الأسود كان على مسرح الأحداث شخصاً له اهميته بعد وفاة عثمان رضـ وفى خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه(٣٥ ـ ٤٠هـ) كان أبو الأسود من كبارأنصاره، فقد شهد معه معركة الجمل (٣٦هـ) وقبل تلك المعركة ارسله لمفاوضة عائشة وطلحة والزبير رضـ[٢٠] و قد حضر معه وقعة صفين (٣٧هـ)، وكان يريده ممثلاً له فى اجتماع الحكمين، ولكنه اضطر لاستبداله بأبى موسى الأشعرى نزولاً عند رغبة انصاره[٢١].

وقد شغل أبو الأسود مناصب هامة فى البصرة فى خلافة على كرم الله وجهه، فقد تولى قضاء البصرة، عند ماكان عبد الله بن عباسؓ والياً عليها [٢٢]. وقيل: كان كاتباً لابن عباسؓ، واستخلفه على البصرة حين خرج إلى اجتماع الحكمين[٢٣]، ثم استعمله على كرم الله وجهه على بيت مال المسلمين، واخيراً استعمله علىؓ على البصرة [٢٤]، ويبد وإنه قد استمر على ذلك حتى استشهد على كرم الله وجهه عام ٤٠هـ .

وباستشهاد على كرم الله وجهه يأخذ قمر أبى الأسود بالافول، لما كان يعلمه الامويون من هواه فى علىؓ ،وعلى الرغم مما يروى أنه كان موسراً، الا أن أشعاره وأخباره تدل على أنه كانت تتناوبه فترات من العوز والفاقة[٢٥] وقد احتفظ أبو الأسود بعلاقات طيبة مع اولى الأمر فى الدولة الاموية ، فقد كان معاوية (٦٠هـ) يقربه ويحسن إليه، وكان صديقاً لحوثره بن مسلم عامل اصفهان وكانت له خير علاقات مع زياد بن أبيه والى العراقيين[٢٦]

ويعد أبو الأسود فى كبار التابعين ، إذا لم تثبت له صحبة رسول الله ﷺ، وعلى هذا الراى معظم من كتب عن أبى الأسود، ويعده بعضهم فى صحابة النبى ﷺ [٢٧] .

ولكن هذا الرائى على ضعفه يرده ماروى عن أبى الأسود نفسه عند ماطلب إلى على كرم الله وجهه أن يكون احد الحكمين فى وقعة صفين، فهو يقول:" فان قيل أنه لا صحبة لى فاجعلنى ثانى اثنين، فليس صاحبهم الاَ من تعرف [٢٨]."

علمه وثقافته:

كان الدؤلى من وجوه التابعين ومحدثيهم، روى عن على كرم الله وجهه فأكثر، و روى عن عمر بن الخطاب وابن عباس وأبى ذر الغفارى وعن أبى موسى الأشعرى وعمران بن حصين رضى الله عنهم جميعاً، وكان ثقة فى حديثه، وهو محدث مشهور، وكان الدؤلى مقرئاً للقرآن ، قرأ على علىؓ وقرأ عليه جمع منهم نصر بن عاصم[٢٩]

وانه كان ذا ثقافة لغوية حسنة، قال عنه أبو الطيب اللغوى: وكان لعلم الناس بكلام العرب، وزعموا أنه كان يجيب فى كل اللغة[٣٠]. وليس ادل على تمكنه وتضلعه فى اللغة من أن عمر بن الخطابؓ كتب إلى عامله بالبصرة أن يجعل أبا الأسود معلماً لأهل البصرة فيما يتعلق بمسائل اللغة[٣١].

ولما كان أبو الأسود على هذه الصورة من العلم والمعرفة فقد كان جديراً بان يتلقى العلم عنه، وقد تتلمذ عليه و روى عنه كثيرون منهم: عنبسة الفيل، يحيى بن يعمر ، نصر بن عاصم ، مسيعون الاقرن، عبد الرحمن بن هرمز، سعد بن شداد اليربوعى، عمران بن اعين، وابنه أبو حرب عطاء بن أبى الأسود الدؤلى[٣٢]

شعره:

لأبى الأسود ديوان شعر، جمعه غير واحد من الرواة

واللغويين، كالاصمعي وأبي عمرو والعسكري، وقد نشرديوانه مرتين في بغداد، فقد قام الدكتور عبدالكريم الرجيلي بتحقيق ديوانه كماطبع مرة أخرى بعناية الشيخ محمد حسن آل ياسين [٣٣]. وقد صدر في شعره عن بيئته الخاصة، وصورنوازعه، وبعض حوادث زمانه، ولكنه لم يحاول ان يتسع به ليغطي الاحداث الكبرى التي عاصرها في عهد الخلفاء الراشدة وفي عهد بني امية من غزوات وفتوحات وفتن وغيرها [٣٤]. فاذا استثنيناه ما قاله في علي رض وآل بيته ، فان علاقة هذا الشعر بعصره ليست قوية مما يرجح أن يكون جزء كبير من شعره قد ضاع ، لأن من المستبعد أن لاتترك تلك الاحداث الجسام بصماتها على شعره.

ولم يتناول الدؤلي في شعره بعض الأغراض التقليدية تناولا مباشراً كالغزل والمدح والفخر فالغزل مفقود في ديوانه، وما نراه من شعره من ثناء على بعض من اكرمه هو أقرب إلى أن يكون حديث المعترف بالفضل منه إلى تملق المادح الكاسب . نعم، انه قد تناول فنوناً أخرى فأجاد فيها، مثل الرثاء وواضح من رثائه لعلي رض وذويه أنه كان صادقاً في رثائه، متأثراً إلى أقصى حدود التأثر [٣٥]، وقد أجاد أيضاً في فن اخر، هو الهجاء الا أنه لا يفحش في هجائه غير ما روى عنه في هجائه عدي بن حاتم [٣٦]، بل خلاشعره من البذاءة والاقذاع، ملتزماً بقوله [٣٧] :

وانى لشيني عن الجهل والخفا وعن شتم ذي القربى خلائق اربع
حياء واسلام وتقيا وانني كريم ومثلي قد يضر و ينفع

وله قصائد وأبيات في الحكم والمواعظ، كما له قصيدة طويلة ميمية، كلها في الحكم[٣٨]، وهذه القصائد كلها تدل على بصيرة نفاذة وتجارب حافلة، ومما انشده[٣٩]:

احبب إذا احببت حبا مقاربا فانك لا تدرى متى انت نازع
وابغض إذا ابغضت بغضا مقاربا فانك لا تدرى متى انت راجع
وكن معدنا للحلم واصفح عن الخنا فانك راء ما عملت وسامع

ومنها قوله[٤٠]:

ولا تدعى للجور واصبر على التى بما كنت اقضى للبعيد على أبى
فانى امرؤ اخشى الهى والتقى مغادى وقد تجربت مالم تجرب

واما صياغة هذا الشعر فتتسم بفصاحة واحساس قوى باللغة ومتانة في التعبير تجعل شعره أقرب إلى شعر الجاهليين، يرضى أذواق المحافظين في عصره لكنه ظل محافظاً على وضوحه وسلاسته ويرق في الرثاء ويتقن بالهجاء بصورة خاصة، مما يدل على تفوقه في ذلك كله.

مذهبه السياسي:

كان الدؤلى من أكثر أنصار على كرم الله وجهه اخلاصاً له ولولديه من بعد، وقد شهد مع علىؓ وقعة الجمل، ووقعة صفين. وكان على رأس جيش أرسله ابن عباسؓ والى البصرة لقتال الخوارج سنة ٣٦هـ[٤١] وظل الدؤلى متعلقاً بحب آل البيت، مؤمناً بعدالة قضيتهم، مقيماً على حبه لهم، حتى بعد ان

زالت دولتهم، ولذلك كان مبغضاً للأمويين، يرفض ان يتولى لهم عملاً [٤٢]، وقد لقى فى سبيل تشيعه لآل البيت عنتاً وضيقاً فى الحياة بعد شهادة علىؓ [٤٣].

وقد سخر الدؤلى شعره لنصرة علىؓ ، وفى ديوانه قصائد طويلة فى نصرة آل البيت، والدفاع عن حق علىؓ فى الخلافة، ومن ذلك أبياته المشهورة [٤٤]:

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة و الوصيا
بنوعم النبى وأقربوه احب الناس كلهم اليا
فان يك حبهم رشداً أصبه وفيهم أسوة ان كان غيا
هوى اعطيته لما استدارت رحى الاسلام لم يعدل سويا

ولما استشهد علىؓ رثاه رثاء حاراً وبكاه بدموع غزار، فى أبيات تقطراسى ولوعه، فمن ذلك قوله [٤٩]:

كأن الناس اذ فقدواعليا نعام حار فى بلد سنينا
فلا تشمت معاوية بن حرب فان بقية الخلفاء فينا

وهكذا رأيناه يرثى الحسين بن علىؓ ومن أصيب معه من بنى هاشم فى معركة كربلاء بحرارة لا تقل على رثائه لعلىؓ ومنها قوله [٤٦]:

ماذا تقولون ان قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم اخر الأمم؟
ماكان هذاجزائى اذ نصحت لكم ان تخلفونى بسوء فى ذوى وحمى

ومنهاقوله[٤٧] :

صبغت أمية بالدماء اكفنا وطوت أمية دوننا دنياها

شخصيته وأخلاقه:

كان الدؤلي كما تصوره المصادر لنا، ذا شخصية متعددة الجوانب، فقد كان أديباً وشاعراً ، خطيباً وعالماً، فانه جمع لنفسه شدة العقل وصواب الرأى، وجودة اللسان، وقول الشعر والظرف[٤٨]

وكان الدؤلي أعرج، اصلع، أبخر، مليح النادرة، حاضر الجواب، وتروى له في هذا الصدد أجوبة مسكتة، فقد كان اهية ذا حجة قوية، ومنطق سديد وعقل متزن [٤٩] كما كان من كبار الشيعة ومن فرسان العرب والأمراء[٥٠].

ومن رأه في شعره وأخباره رأه نازقاً في طبعة جفاء وخشونة، يخاصم جيرانه وأقاربه وزوجاته، ولعل هذا، يوجه لنا ما نلا حظه من كثرة الهجاء في شعره.

كما رأيناه يقول في جاره وهوابن عمه[٥١] :

بليت بصاحب ان أدن شبرا يزدني في مباعدة ذراعا.

ويقول في صديقه الهيثم بن زياد [٥٢]:

لعمرى لقد افشيت يوماً فخانني إلى بعض من لم يخش سرًا ممنعا
فمزقه مزق العمى وهو غافل ونادى بما اخفيت منه فاسمعا

ويقول فى زوجته التى طلقها[٥٣]

فذكرته[٥٤] ثم عاتبته عتاباً رفيقاً وقولاً جميلاً
فالفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله الا قليلاً

ويقول فى جواب ماعابته به عبد الملك بن مروان[٥٥]:

افنى الشباب الذى افنيت جدته كرالجديدين من أت ومنطلق
لم يتركالى فى طول اختلافهما شيأ اخاف عليه لذغة الحدق

وكان الدؤلى متهما بالبخل ، حتى قال أكثر المؤرخين: انه من مشاهير البخلاء عند العرب[٥٦] وأخباره فى تعليل البخل كثيرة، فمن ذلك قوله[٥٧] :

"لو اطعنا المساكين فى أموالنا لكنا اسوأ حالاً منهم"

وقوله[٥٨] :" لا تجاودوا الله عزوجل، فانه أجود وأمجد، ولوشاء ان يوسع على الناس كلهم لفعل."

ولكنه فى غالب ظنناً، ماكان بخيلاً. نعم، انه كان يعيش فقيراً وله من عبيد واماء[٥٩]، فاما من رأه فى هذه الحالة زعمه بخيلاً، وبيد ذلك قد رأيناه كان يستنكر البخل، ومما يدل على ذلك قوله فى الهجاء[٦٠]:

فخاللته ثم أكرمته فلم استفد من لدنه فتيلاً
والفيته حين جربته كذوب الحديث سروقاً بخيلاً

فعند ئذ يكون معنى قوله: "لاتجاودوا الله....."أى لا تبخلوا فتكونون ملومين ولا تسرفوا فتقعدوا محسورين[٦١].

وكان أبو الأسود لا يخالف ظاهره باطنه، فلا يستر شيأ

يحب اظهاره مخافة شرأولومة لائم[٦٢] ، وهكذا كان الدؤلي صاحب مبدأ لا يتحول عنه، ويشهد على ذلك ما نجد كثيراً من أنصار علي رض يتركونه إلى معاوية عند ما مالت الدنيا إليه، غير ان الدؤلي ظل متمسكاً بحب علي وآل بيته رض، حيث شاهدنا عقيل بن أبي طالب ترك أخاه ولحق بمعاوية[٦٣]

كان أبو الأسود ذاغني النفس، فلا يعتمد الا على نفسه ولا يتوكل الا على الله تعالى[٦٤]، كما كان الدؤلي يستنكر الغرائب والتعقيبات ويسلك مسلك السهولة والمعروفة، ومما يدل على ذلك محادثته مع أبي علقمة[٦٥]: ما حال ابنك؟ قال: أخذته الحمى فطبخته طبخاً ورضخته رضخاً فتركته ترحاً، قال: فما فعلت زوجته؟ قال: طلقها فتزوجت بعده فحظيب وبظيت، قال: فما بظيت؟ فقال له: حرف من الغريب لم يبلغك، فقال: يا ابن أخي، كل حرف لا يعرفه عمك فاستره كما تستر المنور خرأها.

نعم، ان الدؤلي كان يعتقد بما كان الصحابة يعتقدون، فكان ملتزماً بالقدر خيره وشره من الله تعالى، وفي هذا المجال أشعاره كثيرة، ومنها قوله[٦٦]:

واذا طلبت من الخلائق حاجة ... فادع الاله واحسن الاعمالا
فليعطينك ما اراد بقدرة ... وهو اللطيف اذا اراد فعالا
ان العباد وشأنهم وأمورهم ... بيد الاله يقلب الاحوالا
فدع العباد ولا تكن بطلابهم ... لهجاً تضعضع للعباد سؤالا

وفاته:

قد عاش أبو الأسود طويلاً، فتوفي بالبصرة وله من العمر

خمسة وثمانون عاماً. الا ان المؤرخين يختلفون فى سنة وفاته، فقال قوم: توفى عام تسعة وستين للهجرة فى الطاعون الجارف[٦٧]، وقال غيرهم: توفى قبل الطاعون[٦٨]، وقال بعضهم: توفى عام سبعة وستين[٦٩]، وقيل أيضاً : توفى عام تسعة وتسعين فى أوائل خلافة عمربن عبد العزيز(٩٩ ـ ١٠١ هـ)[٧٠].

والارجح أن تكون وفاته فى سنة ٦٧هـ وعلى الاقل ـ قبل ذلك الطاعون، بالرغم من الروايات المشهورة أنه توفى عام ٦٩هـ؟ فقد اتفق المؤرخون على أنه أصيب بالفالج قبل وفاته، وربما مات بعلة الفالج كما ينص على ذلك ابن خلكان[٧١]، إذ لم يرد لأبى الأسود ذكر فى فتنة المختار الثقفى وعبيد الله بن زياد سنة٦٦هـ وفى فتنة المختار الثقفى ومصعب بن الزبيرسنة ٦٧هـ [٧٢] وهو من كبار الشيعة، فلو كان حيا لشارك فيها، ويضاف إلى ذلك أن أخر حادث سجله فى شعره كان عام ٦١هـ [٧٣] ، واخر واقعة رأيناه فيها أنه هجا عدى بن حاتم رض، وتوفى عدى سنة ٦٧هـ [٧٤] ، وقد ذكر السيوطى عديا وأبا الأسود معا فيمن توفى فى خلافة عبد الله بن الزبير [٧٥]. واما من قال أنه توفى سنة ٩٩هـ فلعله أخذ الرواية التى تحدثت، ان ولادته عام الفتح،وهذه الرواية غير مقبولة كما مرذكره.

النحو العربى :

النحو من نحا الشئ إذا قصده، فعلم النحو هو علم اعراب كلام العرب افراداً وتركيباً [٧٦] ، وفى الاصطلاح هوعلم بأصول

يعرف بها أحوال أواخر الكلم الثلاث من حيث الاعراب والبناء وكيفية تركيب بعضها مع بعض[٧٧].

وقد جعل الله عز وجل اختلاف الألسنة من اكبر ا ياته الدالة على أنه تعالى خالق كل شئ، وهو العليم الحكيم[٧٨]، ولذا نرى أبناء العالم يستخدمون بألسنة غير محدودة، ولكن اللغات الحية فى العالم الحاضر الآن تعد بالعشرات[٧٩]، وليس بينها من اللغات المعربة الا ثلاث، العربية والحبشية والألمانية، فالظاهر أن الاعراب من خصائص التمدن القديم.

نعم، ان النحو بمعناه الحقيقى طبيعى على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه، لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق، إذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره، واما إذا اراد أن يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحوليسهل عليه تناوله[٨٠] ولذا قد رأينا العرب وغيرهم قد مضت القرون المتطاولة عليهم وهم يتكلمون ويكتبون، يخطبون وينظمون قبل تدوين قواعد النحو، ولكن لما جاء الاسلام اختلطت العرب بالاعاجم، فاستفاضت اللغة العربية على جميع ألسنة الاعجميين[٨١]، وهذا الاختلاط قد دعا إلى فساد لغتهم، فاصبح الناس يهملون الاعراب ويلحنون فى الكلام[٨٢] و قد بدت اعراض هذا الداء الفاشل منذ عهد النبىّ وعهد الخلفاء الراشدة[٨٣] ثم أخذ يستكثر كلما توفرت أسبابه حتى فشا فى الدولة الاموية فشوا تناول الخلفاء والخاصة أيضا[٨٤]، فأحسوا بحاجة شديدة إلى ضبط قواعد اللغة، فوضعوا علم النحو والشكل والا عجام.

فالنحو مالابد منه لقراء القرآن وطلاب العربية، حيث جعلوه علماً من علوم الدين، ولقد قال عمربن الخطابؓ: تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض[٨٥] وأما من هو واضع علم النحو؟ ولم

سمى به؟ وفى أىّ وقت وضع؟ وما رسم الواضع فيه من القواعد؟ فقد اختلف الرواة والمؤرخون فى ذلك كله ، فحاولت بالامكان المستطاع ان اتتبع المرويات المعتبرة تحقيقاً لكى نصيب إلى القول الراجح المحكم ، وذلك كما أدناه ـ

قد نقل محمد بن اسحاق عن بعض العلماء، ان نصربن عاصم الدؤلى رسم النحو أولاً[٨٦] وقال بعضهم: ان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية[٨٧]، وقال الزيات فى تاريخه: ان ابا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وانشائه وانما يرجح أنه الم بالسريانية .....فوضع ماوضع، وعلى آية حال فان أولية النحو لا تزال مجهولة[٨٨]، وقال جرجى زيدان وغيره: قد اجمع العلماء على أن أبا الأسود الدؤلى هو واضع علم النحو ومدونه[٨٩].

فالباحث إذا امعن النظر فى هذه المرويات، فيرجح رأى من قال: أن أبالاسود الدؤلى وضعه أولاً، لأن نصربن عاصم الدؤلى وعبد الرحمن بن هرمز كانا من تلاميذه[٩٠]، وأما ما قاله الزيات، فلا نستطيع ان نقبله، لأنه لو كان أخذه عن السر يانية أو عن غيرها لوضع النقط والحركات للعربية على طبقها، ولكن الواقع يخالفه[٩١] ثم أن قوله يحتمل أيضاً، ان يرجع إلى أنه انكربه تعيين لغة وضع نحوها أولاً ، وهذا صحيح. ولكن وضع علم النحو فى اللغة العربية أو البداية فيه ـ على الأقل ـ ثابت لأبى الأسود، ويؤيد ذلك ماقال به ابن النديم، مما شاهده بعينه عن خزانة أحد جماعى الكتب العربية، حيث ذكر:

"ورأيت مايدل على أن النحو عن أبى الأسود، ما هذه حكايته، وهى اربعة أوراق فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود بخط يحيى بن يعمر(تلميذه) وتحت هذا الخط بخط عتيق،

هذا خط علان النحوى، وتحته، هذا خط النضربن شميل[٩٢].

واما فى تسمية النحو نحواً، فقال بعض أهل اللغة: ان النحو هو القصد، فسمى به لأن المتكلم ينحو(يقصد) به منهاج الكلام افراداً وتركيباً [٩٣]. ولهذا قد نرى كلمة زائدة عند النحاة ليست زائدة من حيث نظم القرآن واعجازه[٩٤]:

وقال أبو جعفر بن رستم الطبرى - ان أبا الأسود الدؤلى استأذن على بن أبى طالب رض - وقد القى عليه شيئاً من أصول النحو- أن أصنع نحو ما صنع، فسمى ذلك نحواً[٩٥]. وقد جاء فى كتاب الحيوان، انه قال امير المؤمنين على بن أبى طالب رض لأبى الأسود الدؤلى، ان اكتب قواعد لغتنا، فقال: كيف اكتب؟ قال: اكتب مثلاً، كلمة اما اسم او فعل او حرف ..... وهكذا، فقال : اصنع نحو ما أمرتنى، ومن ثم سمى هذا نحواً[٩٦]

وإلى ما هنا لك من اوجه التسمية التى لا يخالف بعضها بعضا فى الحقيقة ،بل يمكن أن تجتمع جميعاً فى أمر واحد، فيعضد أحد ها الاخر، نعم، أنا لا نعلم أحداً قام بهذا الاصطلاح وألف فيه كتاباً حتى مضى القرن الأول، فأول من الف فيه أبو عمرو بن العلاء (ت: ١٤٥هـ)[٩٧] وبعده عيسى بن عمر الثقفى (ت: ١٤٩) [٩٨] ثم شاع ذلك بين الناس[٩٩].

وكذلك اختلف الرواة فيما رسم أبو الأسود من قواعد النحو، فقال بعض أهل العم: أنه وضع باب التعجب[١٠٠] ، وقال بعضهم: انه وضع باب الفاعل والمفعول[١٠١]، وقال غيرهم: انه وضع باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول[١٠٢]، وذهب غيرهم إلى أنه وضع باب الابتداء والخبر[١٠٣]، وتوهم بعضهم، أنه وضع نقط الاعجام[١٠٤]، وقد صرح أكثرهم بأنه وضع شكل الكلمات بنقط اعراباً[١٠٥]،

وإلى غير ذلك من الأقوال، فعند المحققين توفيق بين هذه الأقوال المختلفة، حيث يقولون: انه وضع النحو من القواعد مما يسد الحاجة المستعجلة لضبط قرأة القرآن الكريم، فأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التى تصلحها[١٠٦]، واما نقط الاعجام فقد وضعها تمييزاً للحروف بعضها عن بعض نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذا أبى الأسود الدؤلى بأمر الحجاج بن يوسف (٤١ - ٩٥هـ) فى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ)[١٠٧].

وكان السبب الداعى لذلك، ان الخط العربى كان فى أول امره خالياً من الاعجام والشكل (النقط أوالاعراب)، وتشهده رسائل النبى ﷺ وخط الكتابة فى عهده عليه السلام، كما فى صورة-١ .

صورة-١

هذا كتاب النبى ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط بخط حيرى من غير نقط واعراب [١٠].

ولما فسد اللسان بكثرة اختلاط العرب بالعجم، وظهر اللحن فى قرأة القرآن، اشفق المسلمون على تحريف الكتاب الكريم، فوضع له الدؤلى ما وضع من الفاعل والمفعول وغيرهما، وشكل الكلمات بنقط اعراباً. فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله والضمة ـ نقطة بين يديه، وجعل التنوين نقطتين، فهذا نقط أبى الأسود تشكيلاً، كما فى صورة ـ ٢،

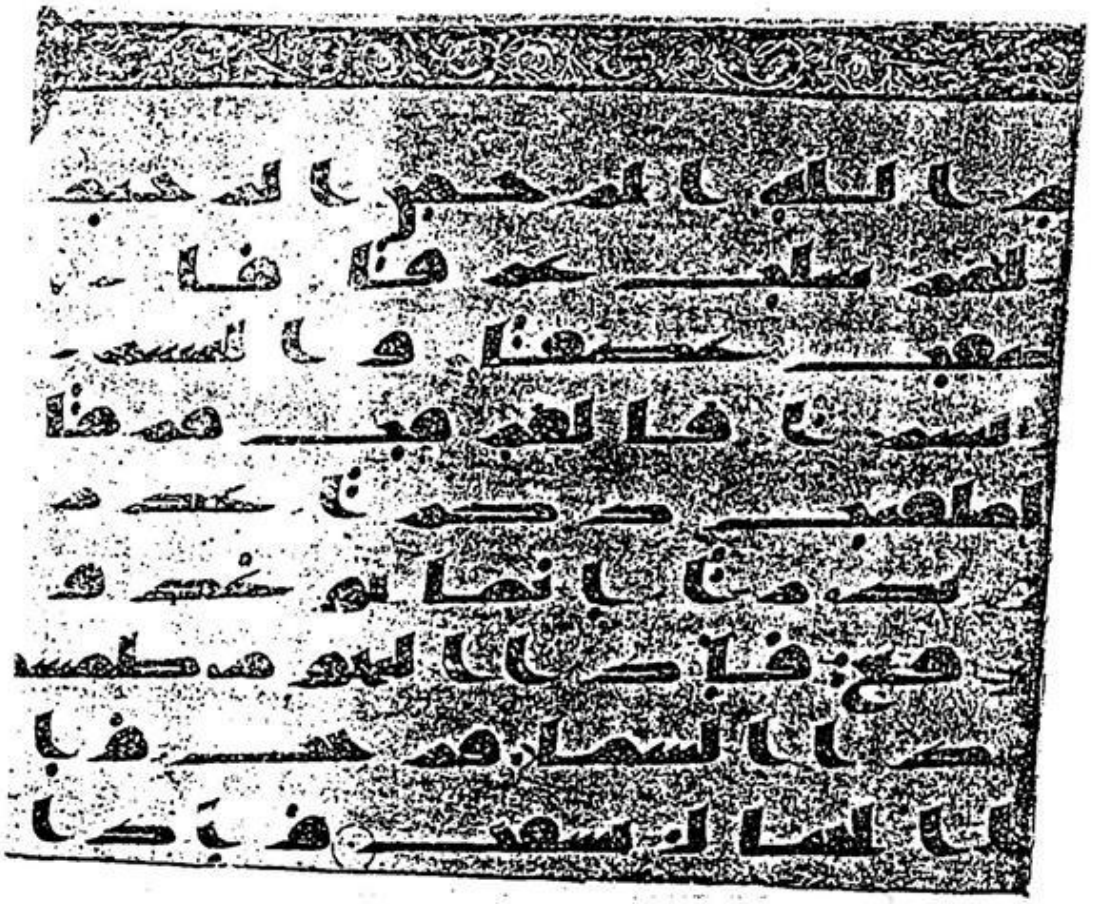

صورة ـ ٢

فانه لم يشكل الا قليلاً، إذ تشكيل الحروف جميعاً كما هو المعروف الآن، قد اخترعه الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ) بعده[٩] وذلك كمافى صورة٣ .

وهذا نموذج مضبوط بالنقط على طريقة أبى الأسود الدؤلى، وفيه بعض آيات القرآن الكريم[١٠] .

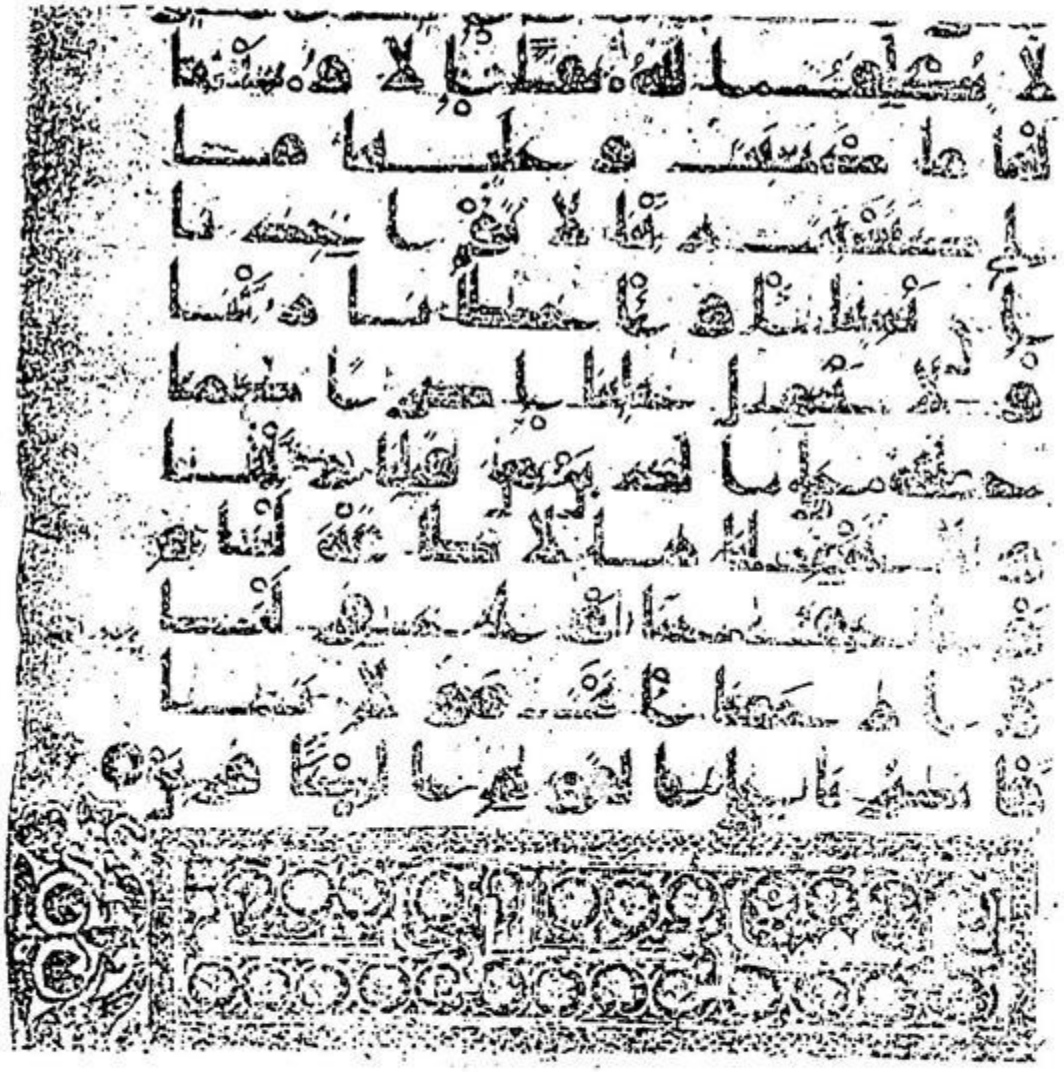

صورة ـ٣

وهذا نموذج مضبوط بضبط الخليل وأبى الأسود معاً. مرسوماً فيه نقطة الشكل دائرة مفرغة، وفيه أخر أية من سورة البقرة بالخط الكوفى المصحفى[١١١].

وهكذا قد اختلفوا فى الوقت الذى قام فيه بوضعه، فقال أكثر المؤرخين: ان الدؤلى قام به فى أوائل خلافة معاوية (٤٠ ـ ٦٠هـ)[١١٢]، وقال بعضهم: أنه وضعه فى خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه (٣٥ ـ ٤٠ هـ)[١١٣].

ولكنه فى اغلب ظننا ، انه أخذ النحو عن علىؓ ، فكان فى استبداء العمل به حتى قتل علىؓ وتولى معاويةؓ ، فكان الدؤلى يخافه، لأنه كان من كبار العلويين،فلما ذهب الله بخوفه عنه جعل يضع النحو، ويؤيد ذلك مارواه أبو عبيدة (ت: ٢١١هـ)، انه أخذه عن علىؓ وكان لا يخرج شيئاً أخذه عنه إلى أحد حتى بعث إليه زياد بن أبيه(عامل معاوية على العراقيين)، ان اعمل شيأ يكن للناس اماماً ويعرف به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: "ان الله برئ من المشركين ورسوله" بالكسرة فى" رسوله" فقال: ما ظننتا إلا أن أمر الناس آل إلى هذا ، فرجع إلى زياد، فقال: افعل ما أمر به الأمير ، فوضع ما وضع[١١٤].

خاتمة:

لغة كل أمة لابد ان تتعاورها ظواهر الحياة وتخضع لنواميس الوجود وتمربها الوان شتى، من ضعف إلى قوة ومن جمود إلى

حركة ومن انتكاس إلى تقدم وازدهار، ولقد تأثرت لغة العرب اعمق التأثر بالاسلام حتى صارت لغة القرآن لغتهم، فانحدرت مع الاسلام من بوادى الحجاز إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وقرطبة وغيرها، فاستفاضت على جميع ألسنة المسلمين الا عجميين، وليس فى مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق أن ينطقوا بها كأهلها. فارتضخوا أنواعاً من اللكنة واحدثوا أوضاعاً من الخطأ حيث اظهرت اللحون فى الحواضر والمدن دون البوادى، فامعن العامة فى التصحيف والتحريف حتى فى القرآن الكريم. فهم كانوا فى زمن يتطلع إلى ادباء وبلغاء بعدد كبير يلعبون دوراً ريادياً فى حماية لغة القرآن ويحملون على عاتقهم رأية الدفاع عنها وتنقيتها من كل شوائب ولحون، ويبذلون جهودهم الجبارة لتنمية آدابها بتصحيح العقائد والأعمال والأقوال على ما يسدبه باب الحاجة.

فأول من قدم اسهاماً جديدا هاماً فى هذا المجال وقام بجماية اللغة باكبر مقدوراته هو أبو الأسود الدؤلى، وهوظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدى بن الدئل من بنى كنانة، وانه فى ارجح الأقوال، قد ولد فى الجاهلية وتوفى بالبصرة فيما بين الاعوام (٦٥ ـ ٦٧ هـ) ، وله من العمر ٨٥ سنة، فانه من سادات التابعين واعيان العلويين، كان من اكمل الرجال رأياً واسعدهم عقلاً كما كان اديباً وشاعراً، خطيباً وعالماً، مثقفاً ولغوياً، حاضر الجواب وجيد اللسان، مصدر قواعد العربية ومجمع العلوم الدينية، حيث قالوا فيه: أنه كان اعلم الناس بكلام العرب، وزعموا أنه كان يجيب فى كل اللغة. ومن ثم

قد رأينا اسم أبى الأسود الدؤلى مرتبطاً عادة بأولية النحو العربى ونشأته، فانه وضع من النحو ماوضع مما يسد الحاجة المستعجلة لضبط قرأة القرآن واصلاح اللحون فى كلام العرب، فأوجد نقطاً لتمييز الكلمات بعضها عن بعض اسماً وفعلاً وحرفاً، فوضع باب الفاعل والمفعول ... وغير ذلك مما تمس الحاجة اليه.

فالظاهر ان ذلك ما كان تكميلاً وتفصيلاً، فتناوله منه ادباء البصرة والكوفة[١١]، فكملوه وفصلوه واضبطوه، فدونوا فى الكتب حيث احكمت روابطه وحققت ضوابطه حتى عرف علماً خاصاً وامراً مهماً جداً ، فلا يسع لأحد من طلاب العربية وقراء القرآن عربياً كان اعجمياً الا أن يحفظه الفاً وياء، وكفى بالله عليماً حكيماً.

☆☆☆

الهوامش

١- ابن حزم، على بن أحمد بن سعيد الأندلسى: جمهرة انساب العرب .- القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٨.- ص ١٨٥.

٢- ابن الأثير، عزالدين: اللباب فى تهذيب الأنساب ط٢.- طهران: المكتبة الاسلامية، ١٣٣٧هـ.- ص ٤٣٠.

٣- نفس المكان.

٤- القهبائ، زكى الدين بن محمود بن شرف الدين: مجمع الرجال .- أصفهان: (د.ن)، ١٣٧٤ هـ.- م ٣، ص ٢٣٢.

٥- نفس المكان.

٦- الزبيدى، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين؛ تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم.- القاهرة: محمد الخانجى، ١٣٧٣هـ.- ص ١٣.

٧- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان؛ تحقيق الدكتور احسان عباس.- ط٢ .- قم: منشورات الرضى، ١٣٦٤هـ.- م ٢، ص ٥٣٩.

٨- القفطى، جمال الدين: انباه الرواة على أنباء النحاة؟

تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ـ القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٥٠م ـ م١، ص ١٢.

٩ـ نفس المصدر، ص ١٣.

١٠ـ أبو الطيب اللغوى: مراتب النحويين . ـ القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٥م ـ ص ٨.

١١ـ ابن خلكان: المصدر السابق . ـ ص ٥٣٩: البغدادى، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون . ـط ٢ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م ـ ص ٢٨١.

١٢ـ ابن خلكان: المصدر السابق ـ ص ٥٣٩.

١٣ـ نفس المكان.

١٤ـ نفس المكان.

١٥ـ عبدالكريم الحيارى: أبو الأسود الدؤلى، عمان: دار الفكر، ١٩٧٥م ـ ص ٣.

١٦ـ أبو الطيب اللغوى: المصدر السابق ـ ص١٤.

١٧ـ الاصفهانى، أبو الفرج: الاغانى ـ عمان: دار الفكر، ١٩٦٨م. م١٢، ص ٢٩٧ن

١٨ـ جرجى زيدان: تاريخ اداب اللغة العربية ـ ط٢ـ القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩٣٤م ـ م١، ص ٢٤٧.

١٩ـ البغدادى: المصدر السابق ـ ص ٢٨١.

٢٠ ـ الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك ـ بيروت: مكتبة خياط، ١٩٦٥م ـ ص ٣٤٤٨.

٢١ـ ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد الاندلسي: العقد الفريد.ـ ط٢.ـبيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٠م.ـم ٤،ص ٣٤٦.

٢٢ـ السيوطي، جلال الدين: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحويين؛ تصحيح محمد أمين الخانجي.ـ القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٤٨م.ـ ص ٢٨٤.

٢٣ـ ابن خلكان: المصدر السابق.ـ ص ٥٣٨.

٢٤ـ السيوطي ء المصدر السابق.ـ ص ٢٨٥.

٢٥ـ اليافعي، عبد الله بن أسعد: مراة الجنان وعبرة اليقظان.ـ حيدر آباد: دار المعارف النظامية، ٣٧ ١٣هـ.ـ م ١، ص٣٠٥.

٢٦ـ ابن خلكان: المصدر السابق.ـ ص ٥٣٦: جرجي زيدان: المصدر السابق.ـص ٢٤٨.

وهذا زياد ،هو زياد بن عبيد. وعبيد كان غلاماً للحارث بن كلدة الثقفي فزوجه من أمته سمية، فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة. فبعد زمان، قد اعترف أبو سفيان بن حرب بعد اسلامه لعليّ ان زياداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمرّ منعه ان يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة عليّ استعمله على خراسان،وحاول معاوية أن يستميله إليه فاعياه حتى قتل عليّ، فرأى ان يستخلصه إليه

بنسب أبيه، فادعى أنه أخ له. وعامله على العراقيين، فصار يدعى بعد ذلك"زياد بن أبى سفيان" ولكن كثيراً من الناس لا يعترفون له بذلك، فيدعونه بقولهم:"زياد بن أبيه" (الزيات، أحمد حسن: تاريخ الأدب العربى ـ ط٢٥مزيدة منقحة ـ(د.م: د.ن ر ـ ت) ـ (موجود بمكتبة الجامعة الاسلامية، كوشتيا، رقم٢٠٠٠٤)(ص١٨٩)

٢٧ـ ابن الأثير، عزالدين: أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ ط٢ . بيروت: دار احياء التراث العربى، ١٣٣٧هـ ـ م٣، ص٦٩.

٢٨ـ عبد الكريم الحيارى: المصدر السابق ـ ص ٥.

واما ما روى عبدالرزاق عن ابن جريج، ان أبا الأسود اتى النبى ﷺ وهو يبايع الناس يوم الفتح، فذلك خطأ، لأنه رواه أبو عاصم عن ابن جريج عن ابن خثيم عن محمد بن الأسود بن خلف، ان أباه الأسود حضر النبىّ وهو يبايع الناس يوم الفتح، فسقط على الراوى"الهاء" فى الكتابة من"أباه" فجعله" أبا الأسود"، فهذا ليس ذاك. (ابن الاثير: أسد الغابة ـ ص ٦٩)

٢٩ـ ابن الانبارى، كمال الدين: نزهة الالباء فى طبقات الادباء؛ تحقيق إبراهيم السامرائ ـ بغداد: مكتبة الأندلس، ١٩٧٠م. ـ ص٨.

٣٠- أبو الطيب اللغوى: المصدر السابق .- ص٢٨.

٣١- اليغمورى، أبو المحاسن: نور القبس .- بيروت: مؤسسة مناهل العرفان، ١٩٧١م .- ص ١٢.

٣٢- ابن النديم: الفهرست .- دمشق: مكتبة الغزالى، ١٣٦٨ .- ص٦٢: ابن الانبارى: المصدر السابق.- ص١١: عبدالكريم الحيارى: المصدر السابق .- ص٩.

٣٣- وقامت بنشره دار الكتب العربية بالقاهرة عام ١٩٤٩م. (الحيارى: المصدر السابق.- ص١١)

٣٤- مثلاً، غزوة الردة فى عهد أبى بكر وفتوح البلدان فى عهد عمرو مقتل عثمان رضى الله عنهم ووقعة الحرة وغيرها فى عهد بنى أمية.

٣٥- الاصفهانى: المصدر السابق .- ص ٣٢٣.

٣٦- البغدادى: المصدر السابق .- ص٢٨١.

٣٧- الاصفهانى: المصدر السابق .- ص٧٩.

٣٨- المصدر السابق، ص ٧١.

٣٩- جرجى زيدان: المصدر السابق .- ص ٢٤٨.

٤٠- نفس المكان.

٤١- الزبيدى: المصدر السابق .- ص١٣.

٤٢- الاصفهانى: المصدر السابق .- م١٢،ص٣٢٣.

٤٣- البغدادى، المصدر السابق، ص٢٨٥.

٤٤- الاصفهانى، المصدر السابق .- ص ٧٣-٧٥.

٤٥- نفس المكان.

٤٦ـ الحيارى: المصدر السابق ـ ص ٨.

٤٧ـ ابن خلكان: المصدر السابق ـ ص ٥٣٨.

٤٨ـ الجاحظ، ابو عثمان عمر وبن بحر: البيان والتبيين ـ ط٥ ـ القاهرة: مكتبة الخانجى، ١٩٨٥م ـ م ٢، ص ٢١٩.

٤٩ـ السيوطى: المصدر السابق ـ ص ٢٧٤.

٥٠ـ البغدادى: المصدر السابق ـ ٢٨٢.

٥١ـ نفس المصدر ـ ص ٢٨٦.

٥٢ـ نفس المصدر ـ ص ٢٩٢.

٥٣ـ نفس المصدر ـ ص ٢٨٤.

٥٤ـ هناك هاء الضمير للمذكر راجع إلى لفظ" امرأ" سبق ذكره، فانه خيل امرأته بامرأ كناية.

٥٥ـ ابن خلكان: المصدر السابق ـ ص ٥٣٦.

٥٦ـ جرجى زيدان: المصدر السابق ـ ص ٢٤٧.

٥٧ـ ابن خلكان: المصدر السابق ـ ص ٥٣٨.

٥٨ـ نفس المكان.

٥٩ـ نفس المكان.

٦٠ـ البغدادى: المصدر السابق ـ ص ٢٨٥.

٦١ـ ويدل على ذلك ،مانبه به أبو الأسود بنيه وقال: فلا تجهدوا أنفسكم فى التوسع فتهلكوا هزالا . (ابن خلكان: وفيات الاعيان، م٢ ،ص ٥٣٩.)

فذلك تمثيل كتمثيل فى قوله تعالى: لاتلقوا بايديكم

إلى التهلكة. ٠سورة البقرة: ١٩٥) وقوله: ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوماً محسوراً، (سورة بني اسرائيل: ٢٩)

وهكذا يكون معنى قوله: لو اطعنا المساكين الخ. - أى أن المسكين يسأل فيعطى، ثم يقنيه غير أن يصرفه وينميه، فلواطعناه فى افناء الاموال هكذا لكنا اسوأ حالاً منه البتة، ويؤيد ذلك مايحث به بنيه على التجارة وما ويشبهها وقال:

وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن الق دلوك فى الدلاء
تجئ بملئها يوما ويوما تجئ بحمأة وقليل ماء

(البغدادى: خزانة الأدب، م ١، ص ٢٨٥.)

٦٢- كما ذكره ابن خلكان، انه كان ينزل البصرة فى بنى قشير، وكانوا يرجمو نه بالليل لمحبته علياً فاذا ذكر رجمهم قالوا: ان الله يرجمك، فيقول لهم: تكذبون، لو رجمنى الله لأصابنى ولكنكم ترجمون ولا تصيبون. (وفيات الاعيان ،م٢ ، ص٥٣٥.)

٦٣- محمد أحسن الله: تاريخ الخلافة؛ ترجمة محمد عبد الجبار صديق. - دهاكا: المؤسسة الاسلامية بنغلاديش، ١٩٨٠م. ص١٠٢.

٦٤- وتدل عليه حكاية، ما نقله ابن خلكان، ان أبا الأسود

أصابه الفالج فكان يخرج إلى السوق يجر رجله، وكان موسراً ذا عبيد واماء، فقيل له: قد اغناك الله عزوجل عن السعى فى حاجاتك، فلو جلست فى بيتك، فقال: لا، ولكنى اخرج وادخل فيقول الخادم: قد جاء، ويقول الصبى قد جاء، ولو جلست فى البيت فبالت على الشاة ما منعها أحد عنى، (وفيات الاعيان،م٢،ص ٥٣٩).

٦٥ـ ابن عبد ربه: المصدر السابق ـ م٢، ص ١٤٧.

٦٦ـ البغدادى: المصدر السابق ـ ص ٢٨٢.

٦٧ـ ابن خلكان: المصدر السابق ـ ص ٥٣٩.

٦٨ـ نفس المكان.

٦٩ـ نفس المكان.

٧٠ـ نفس المكان.

٧١ـ نفس المكان.

٧٢ـ محمد أحسن الله: المصدر السابق. ـ ص ١٢٦: السيوطى: تاريخ الخلفاء ؟ تصحيح جعفر على النجينوى ـ كلكتة: مطبعة مجيدية، (د. ت) ـ ص ١٥٠.

٧٣ـ وذلك، انه ذكر واقعة كربلاء ورثى الحسين ومن كان معه، وكانت تلك فى سنة ٦١هـ. الحيارى: المصدر السابق ـ ص٧)

٧٤ـ البغدادى: المصدر السابق ـ ص ٢٨٧.

٧٥ـ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١٥٠.

٧٦- لويس معلوف: المنجد ـ ط ١٢ ـ بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١م ـ ص ٧٦٢.

٧٧- هداية النحو ـ دهلي: كتب خانة رشيديه، ١٩٥٥م .ث ص٣.

٧٨- القرآن الكريم، ٣٠: ٢٢.

٧٩- الزيات: المصدر السابق ـ ص ٢٠٥.

٨٠- نفس المكان.

٨١- نفس المكان.

٨٢- ويدل عليه قوله عليه السلام: " ارشدوا اخاكم فقد ضل" اى قد لحن فى القرآن، وقول أبى بكر" لأن اقرأ فاسقط أحب إلى من ان أقرأ فالحن"(جرجى زيدان : المصدر السابق ـ ص ٢٢١.)

٨٣- الزيات: المصدر السابق ـ ص ٢٠٥.

٨٤- الجاحظ: المصدر السابق ـ ص ٢١٩٠.

٨٥- ابن النديم: المصدر السابق ـ ص٥٩.

٨٦- نفس المكان.

٨٧- الزيات: المصدر السابق ـ ٢٠٦.

٨٨- جرجى زيدان: المصدر السابق ـ ص ٢٢١.

٨٩- الزيات: المصدر السابق ـ ص ٢٠٧.

٩٠- لأن الحركات عند العبرانيين ١١، وعند السريان الشرقيين ٧، وعند السريان الغربيين ٥، وأما فى

العربية فهي ثلاث فقط. وللتفصيل -(جرجي زيدان : المصدر السابق. ص٢٢٣.

٩١- ابن النديم : المصدر السابق .- ص ٦١.

٩٢- لويس معلوف : المصدر السابق .- ٧٦٢.

٩٣- مثل قوله تعالى : ان" ما" فبما رحمة من الله لنت لهم" (سورة آل عمران: ١٥٩) فان النحاة يقولون : ان" ما" في هذه الآية زائدة في الاعراب، مع ان في هذه الزيادة لوناً من التصوير، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فان المراد به، تصوير لين النبي عليه السلام لقومه، وان ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في" ما" وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك، فان لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى باحسن منها في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الأية كما نرى، وللتفصيل - (مصطفى صادق الرافعي : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية .- ط٣ منقحة . بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت) .- ص ٢٣١.)

٩٤- ابن النديم : المصدر السابق .- ص ٦٠.

٩٥- هداية النحو (سبق ذكره) ص٣ . (بحاشية، رقم ٥)

٩٦ـ ابن النديم: المصدر السابق ـ ص ٦١.

٩٧ـ نفس المصدر، ص ٦٢.

٩٨ـ الزيات: المصدر السابق ـ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

ويدل عليه ما انشد الخليل يمدح شيخه عيسى بن عمر الثقفي (ت: ١٤٩ هـ) وكتابيه:

بطل النحو جميعاً كله غير ماأحدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

(ابن النديم: المصدر السابق، ص ٦٢، ٦٣.)

٩٩ـ ابن خلكان: المصدر السابق ـ ص ٥٣٧.

١٠٠ـ ابن النديم: المصدر السابق ـ ص ٦٠.

١٠١ـ الزيات: المصدر السابق ـ ص ٢٠٦.

١٠٢ـ ابن عبد ربه: المصدر السابق ـ م ٢، ص ١٤٤.

١٠٣ـ جرجي زيدان: المصدر السابق ـ ص ٢٢٢.

١٠٤ـ الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عنانى: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ـ ط ٤ ـ القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٢٣م ـ ص ١٢٣: الزيات: المصدر السابق ـ ص ٢٠٧: ابن النديم: المصدر السابق ـ ص ٦٠.

١٠٥ـ الزيات: المصدر السابق ـ ٢٠٧.

١٠٦ـ نفس المصدر، ص ٢٠٨.

١٠٧ـ ونصها كما نقله الاسكندري في الوسيط، ص ١٢٣:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله

ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام، اسلم تسلم، يؤتك الله اجرك مرتين، فان توليت فعليك اثم كل القبط،"يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيا ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

١٠٨ ـ الزيات :المصدر السابق ـ ص٢٠٨،٣٧٣.

فان الخليل قد استعمل الحروف الصوتية المحذوفة فى الدلالة على الحركات، وهى الألف والواؤ والياء، فاختصر من الألف الفتحة ومن الواؤ الضمة ومن الياء الكسرة، ولهذا اذا تأملنا صور الحركات المعروفة الآن رأينا الفتحة كالألف المائلة والضمة كالواؤ الصغيرة والكسرة كنقطتى الياء معاً، وهكذا البواقى، وللتفصيل ـ(جرجى زيدان : المصدر السابق ـ ٢٢٤.)

١٠٩ ـ ونصها:

(بسـ)م الله الرحمن الرحيم

(و) المرسلت عرفا. فا

(لعـ) صفت عصفا. والنشرت

نشرا . فالفرقت فرقاً.

(فا) لملقيت ذكراً .عذراً

(أ) ونذرا . انما توعدون

(ـ) واقع . فاذا النجوم طمست.

(و) اذا السماء فرجت. وا

(ذ) ا الجبال نسفت . واذا

١١٠ ـ ونصها :

لا يكلف الله نفساً الاوسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تواخذنا ان نسينا او أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لناوارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

١١١ ـ جرجي زيدان : المصدر السابق ـ ص ٢٢١ : الزيات : المصدر السابق، ص٢٠٦.

١١٢ ـ ابن النديم : المصدر السابق ـ ص ٦٠ : ابن خلكان : المصدر السابق ـ ص٥٣٧.

١١٣ ـ ابن النديم :المصدر السابق ـ ص ٦٠.

١١٤ ـ ومن اشهر هم : تلاميذ أبي الأسود الدؤلي كيحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، وعنبسة الفيل وغيرهم، وتلميذ عنبسة عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي (ت : ١١٧هـ)، وقيل انه أخذ عن الدؤلي أيضاً، وأخذ عنه أبو عمر وبن العلاء (ت : ١٤٥ هـ)

وعيسى بن عمر الثقفي (ت : ١٤٩ هـ)ثم أخذ عنها

الخليل بن أحمد (ت : ١٧هـ) وأخذ عن الخليل سيبويه (ت:١٧٧هـ) ثم جاء بعدهم معاذ الهراء (ت: ١٨٧هـ) و والكسائي (ت:١٩٧ هـ) والفراء (ت:٢٠٨هـ) والأخفش (ت: ٢١٥هـ) وغيرهم. وللتفصيل - (ابن النديم : المصدر السابق ـ ص ٥٩ـ١٣٠: الزيات : المصدر السابق. ص ٣٦٤ـ ٣٧٤ .)

☆☆☆

خصائص المدائح النبوية

للشيخ ظفر أحمد العثمانى التهانوى

الدكتور أبو سفيان الإصلاحى☆

نعرف جيداً أن العلاقة توجد بين الهند والعرب بحيث اللغة والأدب والحضارة منذز من قديم وأن آثار الثقافة العربية قد تسربت فى ثقافة البلاد الهندية ومعيشتها وكذلك أيضاً أن كثيراً من الملامح للحضارة الهندية توجد فى الثقافة العربية والاتصالات التجارية قديمة ووطيدة بينهما ونحن ندرس باحاديث مختلفة أن رسول الله ﷺ كان يعرف البلاد الهندية جيداً والاسواق الكبيرة للتجار الهنديين كانت موجودة فى بلاد العرب وأن الإسلام قد دخل فى المناطق الهندية الجنوبية بالروابط التجارية ؎ وفى هنده الأيام يقال بدون تردد أن الاسلام يكون باقياً فيها إلى الأبد - لأن المسلمين اسسوا مراكز عديدة ومدارس مختلفة فى جميع انحاء البلاد ولتنشيط حضارتهم وانهاص اللغة العربية وآدابها وتخرج العلماء الكرام والباحثون العظام والشعراء الكبار منها و أدوا خدمات باهرة والفوا كتباً دينية وعلمية على موضوعات مختلفة ورتبوا ايضاً كتباً قيمة حول السيرة المباركة وأن الشعراء قرضوا الأبيات عن شخصية رسول الله وذكروا زوايا سيرته فى دواوينهم ؎. حينما نتصفح تاريخ

☆ القسم العربى بالجامعة الإسلامية علي جراه

الشعر العربى الهندى. نجد أن المدائح النبوية توجد قبل بداية القرن الثامن[٣]. والشاعر الأول للمدائح النبوية القاضى مقتدر بن القاضى ركن الدين الشريحى والكندى والدهلوى (٧٠٣ - ٧٩١هـ) يوجد فى القرن الثامن وهذه السلسلة الذهبية استمرت إلى العصر الحديث[٤] - وكان الشيخ العثمانى[٥] (١٣١٠ - ١٣٩٥هـ) واحداً منهم وأنه كان عالماً كبيراً من علماء القرن العشرين العربية والأردوية وألف مؤلفات عديدة فى كليهما وكان من مؤلفاته القيمة "اعلاء السنن فى الحديث" يحتوى على عشرين جزءًا. وأنه قرض قصائد مختلفة وثلاث المدائح النبوية والمراثى للسيد حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوى وشيخه محمود حسن الديوبندى ومولاه خليل أحمد وتلميذه الرشيد العلامة محمد ادريس الكاندهلوى وزوجته تغمدهم الله بلطفه الأبدى وبعد دراسة مراثيه أنا وصلت إلى هذه النتيجة أنه يضع مهارة تامة على هذا الموضوع -

فى هذا المقال أحاول أن أقدم صورة اجمالية قصيرة عن خصائص مدائحه النبوية، قدم الشيخ العثمانى شمائل النبى صلى الله ﷺ ومعجز اته وخدماته الباهرة و مصائبه العظيمة وأقواله الجيدة فى طرف ووصف خصال الخلفاء الراشدين وصَحَابَتِه واضاحى حسن وحسين رضي الله عنهما وحادثة كربلاء عدو ان اعداء النبى ومجيئه إلى المدينة المنورة وحالة العرب قبل بعثة الرسول ونزول السعادات بولادة النبى الكريم ﷺ وانحطاط المسلمين وعشراته وزلاته فى طرف آخر . وقدم الشيخ العثمانى افكاره و أحاسيسه وعواطفه بألفاظ جميلة

ومعانى بارعة وتراكيب جيدة وتشبيهاتٍ نادرة واساليب رائعة . وهذه الناحية ظاهرة من جميع أبياته أن العثمانى يحب النبى ﷺ حباً جماً ويقر ذات النبى استناداً واتكاءً لنفسه وقرةً لعينه فى هذه الدينا وشافعاً فى دار الآخرة ودعامة للمسلمين فى مصائبهم واحزانهم وبدراً منيراً فى الليالى وشمساً مضيئة فى الزمان ومجيراً كاملاً للمصابين ورشاداً للضالين وساقياً للظاء واينساً للمتوحشين بالنوى ورجاءً للبائسين - والآن اشيرإلى ميزات مدائحه النبوية فى ضوء أبياته العديدة أولاً أنا اذكر الأبيات التى فيها يشبه النبىّ بالبرق واللؤلؤالفلق والغياث والربيع والياقوت فى حجر وما إلى ذلك -

زال الظلام ولاح النور فى الافق • برق تألّق فى داج من الغسق ٦

أتاك ربك ما لم يؤته أحداً • من الجمال كمثل اللؤلؤ الفلق ٧

كنت الغياث الايتام و أرملة • أمست من لجوع كالبالى من الورق ٨

انت الحياة لمن ماتت عزيمته • أنت الربيع لأهل الجدب الرمق

و أنت فى الناس كا لياقوت فى حجر • وأنت فى الخلق مثل النور فى الحدق ٩

بعد استماع الأشعار المذكورة نحن نعترف بعظمته الشعرية بدون حكم العقل - وأنه كان عارفاً بشخصية الرسول من جميع الجوانب وتعليماته الرافعة وقادراً على تقديم آرائه وعواطفه فى أسلوب جذاب - لا شك فيه أنه كان شاعراً مطبوعاً ، ذاكرته

فياضة تتفضل الكلمات والمعانى من قلبه كما يقول هو عن قصيدته التى قرضها للكتاب والكوكب الدرى (مؤلفه : الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى) ولشارحه ومحشيه (الشيخ محمد زكريا) ''أنا أرسل التقريظ للكوكب الدرى، وإن أوفى الوعد بعد زمن مديد، لكن هذه حقيقة أن الورود ليس ممكناً بدون دراسة الكوكب الدرى وهذا أمر صعبٌ لى أن اقرض الشعر بتكلف وتصنع لأن الأشعار تدور وتجول فى الذهن فى أوقات الصلوٰة والأذكار وأنا اشعر بالاذية منها وأنا لا أشعر بأى أذية من الورود والعواطف القلبية ـ لكن الورود يحتاج إلى محرك قوى وعامل عميق[١١]''ـ

أن الشيخ العثمانى قد ذكر أن العرب كان تحت سيطرة الظلمات وظلم الغيوم والجهالة ، لكن حينما شَرَّف الرسول العرب بقدومه الميمون استنار جميع اكناف العرب واشرقت قلوب أهل العرب ـ أن الشيخ العثمانى يصور ذلك المنظر الانيق والبهيج هكذا:

نبى أتى والناس فى فحمة الدجى • من الظلم فى شرمن الجهل منكر
فلألأ نورالحق والرشد ساطعاً • بطلعه ميمون النقية أزهر
محمدن المبعوث للناس رحمةً • لوجه منير مستنير منور[١١]

ويقول فى مديحة أخرى أن البركات والألطاف اتصفت بذات النبى ﷺ :

منه الحياة لكل حق ميت • منه الممات لكل قول زور
منه البياض لكل قلب أسود • منه السواد لكل عين ضرير
منه البهاء لكل وجه عابس • منه الضياء لكل ذات قتور[١٢]

ويقرض أيضاً عن مجيئه المبارك والسعيد

زال الظلام ولاح النور فى الأفق • برق تألّق فى دأج من العنق
برق من الطور أوبدر على جبل • ببطن مكة منشق على فلق
قدجاء والناس فى هرج وفى حرج • والظلم عم بسيط الأرض بالقلق[١٣]

هذه ناحية من نواحى العصر الجاهلى أن العرب كانوا إنغمسوا فى المعاصى والخمور والأزلام والأوثان والألاعيب وكانوا يقضون حياتهم فيها ويفتخرون بأبائهم واحيائهم وشعرائهم وكانوا مبتعدين ابتعاداً عن تكريم الإنسان - اشار العثمانى إلى هذه الناحية فى أسلوبه الخاص -

والجهل كالليل قد أرخى ذوائبه • فى شيم كفر على الآفاق منطبق[١٤]

ويقول فى قصيدة أخرى :

قد جاء نا والناس فى ظلماتهم • والجهل قائدهم لكل فجور
مرجت عمودهم وضاع أمانهم • والظلم شيمة تابع وخفير
وأدوا البنات فيالها من قسوة • كادت تخر لها جبال ثبير
عبدوا الحجارة من سفاهة رأيهم • وصبوا إلى حب النساء الحور
كانت صلواتهم المكاء برقصة • فيها الصياح بشهقة وزفير
وطوافهم بالبيت كان معرة • عُريا إناثهم وكلّ ذكور[١٥]

أنا نقلت الأشعار التى فيها ذكرت أن العرب كانوا يقاسون المجاعة والاصابات والظروف الموذية الأخرى قبل بعثة الرسول ﷺ وبعد بعثته أنهم واجهوا الحالات السعيدة والبهيجة - هكذا

حينما هاجر النبي الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة فازدهرت أجواءها، تنعمت بيئاتها صورها العثماني التهانوي في أشعاره:

ولما تمادى القوم في الغي والأذى • ترحّل عنهم رحلة المتضجر
ترحّل عن قوم فمالت جدورهم • وحلّ على قومٍ بخيرٍ مفجّر
وقد نزلت منه على أهل طيبة • شابيب فضلٍ في سناءٍ مشهّر
هنيئاً لأنصار النبي سعادةً • أبتها فئامٌ من ضلال التفكر
وفطيبة طابت واشمخرت إلى العلا • وقد لألأت أقطارها بالتنور [١٦]

وذكر العثماني في مديحه "وسيلة الظفر" فتح مكة المكرمة وقدم عفوالرسول الفائق ومسامحته النادر أن رسول الله ﷺ قد صفح عن اعداءه الألداء ونسى جميع أفعالهم القبيحة والشديدة - وهويقول:

فتح البلاد بحلمه وبجوده • وعطائه ونواله المشكور
واها لخطبته بمكة بعد ما • تهر العد و بسيفه المشهور
يا أهل مكة ما ترون جزاء من • قطع الحبال وعضّني كعقور
عجباً لرحمته على أعدائه • ولعفوه عن خصمه المقهور
فلقد عفا عن قدرة عمن طغىٰ • وبقى عليه وسامه بقطير
فاولئك الطلقاء ومنّ عليهم • كرما فأسلم كلهم بشكور [١٧]

ذكرت في بداية المقالة أن العثماني بحث أيضاً في مدائحه أصحاب النبي الكريم والخلفاء والراشدين وواقعة كربلاء لأنه بعيد عن تصور المدائح المحدودة ويفهم أن المدائح امتدت إلى العصر

الجاهلى والغزوات والسرايا وخلفاءه الراشدين وأصحاب النبى الكريم والتاريخ الإسلامى و ما إلى ذلك وما انتهت إلى صفاته العالية وشخصيته البارزة فقط كما انتم ترون عند كثير من الشعراء للمدائح وأن المدائح للعثمانى تعلقت بالمباحث العديدة التى تذهب إلى شخصية النبى الكريم ﷺ مثلاً يلقى ضوءاً على الخلفاء الراشدين :

أبو بكرن الصديق أوّل مؤمنٍ • وحيث رفيق بالمغار المحجر
ابو حفض نِ الفاروق خير خليفة • أعزّ به الإسلام فى كل محضر
وعثمان ذوالنورين افضل صابرٍ • على الموت ظلماً بالقضيب المشهّر
على فتى الفتيان بطلٌ مجرّبٌ • وما أبصرت عينا شجاع كحيدر[١٨]

وذكر الخلفاء الراشدين فى مديحة اخرى بالتفصيل، لكن انقل أربع ابيات منها: وهو يقول عن أبى بكرن الصديقؓ -

قد كان ارحمهم بأمة أحمد - اسخى الأنام بفضله الموفور

ويقول عن عمرؓ :

فاق الملوك بعدله وبفضله • وبعلمه بسياسة التدبير

ويقول عن عثمان ذى النورين :

لم يرض لما حاصر واه بداره • ظلماً بشق عصاهم المسمور

ويقول عن علىؓ :

اسد الاله وسيفه المسلول فى • ميدان خيبر فى أجل ظهور[١٩]

وهكذا أيضاً ذكر شخصية الحسن وحسين رض و اهميتهما وقرّر شهادة حسين خيبة وخسارة للأمة الإسلامية وهو يقول:

ثم ابنه الحسن الرضى المجتبى • غوث الأنام بكل يوم تُبور
أحبب بعترته الزكية انها • لنجوم بدر بالفلاح منير
ووجوه من عاداهم مسودّة • بدم الحسين بكربلاء القور
قتلوا وقد علموا بأن قتلهم • حب النبى تعم وبدر يدور
ريحانة الإسلام قرة عينه • زين العشيرة رغم كل فخور
من كان مركبه النبى -ظهره • تبالهم تركوه رهن قتير
أحسين لا تبعد فذكرك خالد • والذكر للإنسان خير عمور[٢٠]

وبعد اذكر الأسلوب الخاص الذى يوجد عند العثمانى يعنى أنه يخاطب النبى الكريم بأنت" وهذا الأسلوب يذكر خصائص رسول الله ﷺ ويتمتع القارئون بلذة خاصة وفرحة مرموقة : أنا اكتفى فقط على عدة أبيات لأجل الامتداد :

أنت الأنيس لمن توحّش بالنوى • أنت الجليس لمفرد مكسور
أنت الكريم ابن الكرام زوى العلى • ولانت ذونسب أضاء نمير
أنت الشفيع وأنت خير مشفع • يوم التناد وانت خير صبير[٢١]

ويقول فى قصيدة اخرى:

أنت البشير لمن طابت سريرته • بجنةٍ بالها من خير مرتفق
وأنت أشرفهم بيتاً ومنزلةً • وأنت ذو نسب كا لشمس مؤتلق
وأنت أجمل من يرنو بمقلته • وخير لاقٍ بوجه مشرق طلق[٢٢]

والآن أقدم الأشعار من مدائح العثمانى التى تجدون تأثيرات القرآن الكريم فيها ولاشك فيه أن الشاعر الذى يكون عارفاً بأساليب القرآن فهو يكون عارفاً وحاذقاً فى المدائح لان عائشة رضـ اجابت "حينئذٍ سئلت عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم "كان خلقه خلق القرآن" حينما ندرس هذا الشعر لعثمانى :

لقد جاهدوا فى الله حق جهاده • صلوا فى لهيب الحرب ذات الشَعرِ[٢٣]

نجد أن العثمانى استعمل آية سورة الحج "وجاهدوا فى الله حق جهاده" للمصرعة الأولى نسقها بطريقة جيدة فى الشعر۔
حينما نصل إلى شعره الآخر:

نظام لحق بل قيام لأهله • نكال لباغى الشر للحق منكِرٌ[٢٤]

تجيئى هذه الآيات التالية
"فأخذه الله نكال الآخرة والأولى" (والنازعات: ٧٩ / ٢٥)
"فجعلناها نكالا لمابين يديها وما خلفها موعظة المتقين " (البقرة٢٨ / ٦٦)
ويقول فى سورة المائدة
فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله" (المائدة: ٥ / ٣٨)
وقرض العثمانى هذا الشعر

فنادى بصوت زلزل الأرض مرة • الا فأقبلوا قول التدبيرا لمذكر[٢٥]

فى ضوء هذه الآيات: مثلاً قال سبحانه وتعالى فى سورة

الزلزلة:

"اذا زلزلت الأرض زلزا لها"(الزلزلة ٩٩/١)

وقال ايضاً فى سورة الأحزاب "هُنَالِك اُبْتُلِىَ الْمُؤْمِنُوْنَ وزُلْزِلُوا زلزالا شَدِيْداً (الاحزاب: ٣٣/١١)

وفى هذا الشعر التالى نجد تأثير القرآن الكريم ايضاً:

اقروا بأن الله لاربّ غيره • وأنى رسولٌ من مليك مقدّر[٢٦]

يعنى هذا الشعر قرضه العثمانى فى ضوء آية سورة القمر:

"فى مقعد صدق عند مليك مقتدر"

وشعره الآخر يوجد تحت أسلوب القرآن ويسعىٰ العثمانى أن يضم مفاهيم سورة لهب فى الشعر التالى:

ونادىٰ شقى القوم تباً لمن دعا - فتبت يداه فى لهيبٍ مُسعر[٢٧]

عند ما نجيئى إلى هذا الشعر:

سبحان من برأ الأكوان من كلم • سبحان من خلق الانسان من علق[٢٨]

تجيئى مفاهيم هاتين الآيتين فى أذهاننا!

قال سبحانه فى سورة مريم:" سُبْحَانَه إذَا قَضى أمْراً فَإنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنَ" (مريم: ٩. /٣٥)

وقال سبحانه فى سورة العلق "اِقْرَأبِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِىْ خَلَقَ - خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" (العلق: ٩٦/٢)

وصور القرآن الكريم يوم الآخرة ويوم النشور فى آيات عديدة وهذا المفهوم قدمه الشيخ العثمانى فى هذا الشعر:

هو سيد الرسل الكرام أما مهم • وله لواء الحمد يوم نشور[٢٩]

أنا انقل ههنا آية منها

"فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذٰلِكَ النُّشُورُ"(سورة فاطر :٩/٣٥)

وذكر الشيخ العثمانى قصة المعراج وتقرب رسول ﷺ بالله تعالى فى هذ الشعر:

حتى دنا من ربّه فى منزل • حتى قاب قوسين بخير ضمير[٣٠]

أنا اقول: إن العثمانى أدمغ مفهوم آيتى سورة النجم بطريقة سهولة: قال اللّه تعالى :

"ثم دنا فتدلىّ فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى"(النجم:٥٣/٨-٩)

نحن ندرس فى المدائح للشعراء العرب والهنود أنهم يدعون رسول الله متضرعين ومبتهلين للاستغاثة والاستعانة فى المصائب والاحزان والاكتئابات ويجيئون حضورهٗ باصاباتهم وأزمات الملة الاسلامية ويقرون خطيئاتهم وخطيئات القوم ويقدمون اهاناتهم واعتذاراتهم واضطراباتهم وضعفهم بين يديه ويعيدون هذا المفهوم مراراً فى مدائحهم ويقولون أننا نرجو منكم أن تشفع فى دار الآخرة لاننا نرى لا قيمة لنا بدون شفاعتكم يارسول الله ! هكذا ايضاً يعتزرون بأننا لا نستطيع لحصول النجاة من الانحطاط و الأندثار فى هذه الدنيا ولانتمكن لانقاذ انفسنا من عذاب النار والسلاسل و الأغلال والسعير بدون معونتكم يا حبيب اللّه ! الآن انقل ابياتاً تضم

هذه المعانى والافكار :

أنظر إلى ظفرٍ قد جاء معتذراً • والطف بصبٍ، كئيبٍ، هائم، شقق
فامنن علينا رسول الله ليس لنا • ألا اليك النجا فى الحادث الأزق
أنت الشفيع لنا إذلا يقوم لها • سواك فى الناس يوم الحشر والصعق[٣١]

ويقول الشيخ العثمانى فى قصيدة اخرى

فارحم رعاك الله كربة عاجز • دنف كئيب هائم متبور
يا رحمة للعالمين غياثهم • انظر إلى ظفر هوى بقعير
انظر فلا أجد سواك لنا إذا • صعق الأنام بنقرة الناقور
وانصر إذا حضرالحمام وافردو • نى فى البقيع لمنكر ونكير[٣٢]

أنا بحثت عن النكات الرئيسية لمدائح الشيخ العثمانى فى السطور السابقة ووصلت إلى نتيجة بأن الشيخ العثمانى أبدى براعته ومهارته ونبوغه فى المدائح النبوية وفاق اقرانه فى هذا المضمار وكل واحد يمكن له أن يجد هذه الخصائص الفنية فى جميع مدائحه وأنه لايدور حول شمائل النبى الشخصية فقط بل يوسع شخصية النبى واعماله آثاره فى جميع نواحى ايضاً الحياة التى امتدت إلى قرون و قرون وتتمتع الشيخ العثمانى بأسلوب سهل نقى صافى رقراق ويوثر المشاعر و القلوب ولكن من سوء الحظ أن الشيخ العثمانى كان بامكانه أن يترك لنا مجموعة كبيرة متنوعة حول المدائح النبوية ولكنه اقتصر با لقليل ولكن لا بأس -

قليل منك يكفينى ولكن قليلك لا يقال له قليل

☆☆☆

الحواشى

(١) أنظر للتفصيل: المسالك والممالك، دار القلم، القاهرة، ص: ٦١-٦٦

(٢) أنظر: شعراء الرسول- سعيد الأعظمى الندوى - مكتبة الفردوس الإسلامية، لكناؤ

(٣) كتاب الحيوان، ٧٥/٧

(٤) أنظر لتراجم الشعراء الهنود مقالة الدكتوراه "المدائح النبوية بالهند باللغة العربية" للدكتور محمد صدر الحسن الندوى- هذه المقالة ما نشرت حتى الآن

(٥) أنظر لسوانح حياة الشيخ وخدماته: تذكرة الظفر- مولانا عبد الشكور- الطبعة الأولى- مطبوعات على كمالية- فيصل آباد (باكستان) ١٩٧٧ء ص: ١٢-٥٢٨

(٦) نور على نور - ظفر أحمد التهانوى - مطبع جمال برقى پريس، دهلى- ربيع الأول ١٣٥٤هـ ص:١١

(٧) أيضاً، ص: ١٢

(٨) أيضاً، ١٣

(٩) أيضاً، ١٥، ٩/٢ الكوكب الدرى: مجموعة دروس (محاضرات) جمعها تلميذها الشيخ يحيى الكاندهلوى وتنشرها ابنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى مع تعليقاته باسم "لامع الدرارى"،

(١٠) فهرسة تاليفات شيخ- مرتبه: سيد محمد شاهد- مكتبة يادگار شيخ، سهارنفور- ١٩٩٧ء- ٢٨٢/٣-٢٨٣

(١١) نور على نور، ص: ٥

(١٢) وسيلة الظفر- العلامة الأديب الفقيه المحدث الأديب ظفر

أحمد العثمانى التهانوى ـ مطبعة معارف باعظم گڑھ ـ ١٣٦٣ ھ، ص: ٤

(١٣) نور على نور، ص: ١١

(١٤) أيضاً، ص: ١٢

(١٥) وسيلة الظفر، ص: ٥

(١٦) نور على نور، ص: ١٠

(١٧) وسيلة الظفر، ص:٧

(١٨) نور على نور، ص: ٢ـ٣

(١٩) وسيلة الظفر، ص: ١٠ ـ ١١

(٢٠) أيضاً، ص: ١١ ـ ١٢

(٢١) أيضاً، ص: ١٣ ـ ١٤

(٢٢) نور على نور، ص: ١٤ ـ ١٥

(٢٣) أيضاً، ص: ٤

(٢٤) أيضاً، ص: ٦

(٢٥) أيضاً، ص: ٧

(٢٦) أيضاً، ص: ٨

(٢٧) أيضاً، ص: ٨

(٢٨) أيضاً، ص: ١٦

(٢٩) وسيلة الظفر، ص: ٤

(٣٠) أيضاً، ص: ٩

(٣١) نور على نور، ص: ١٦

(٣٢) وسيلة الظفر، ص: ١٤ ـ ١٥

☆☆☆

نجيب محفوظ :
فلسفة حياة و وجهة نظر

الدكتور محمد فيضان بيك☆

إذا كان حقاً أن الأدب لأصدق تعبير عن فكر الأديب، فصحيح أيضاً أن كل كاتب يكون له مواقف من النشاطات البشرية فى الحياة، وكذلك لا بد أن يكون له وجهة نظر معينة ازاء هدف نهائى لهذا الوجود و فلسفة عن غاية الحياة نفسها، وإن هذه الفلسفة وإن يتحذر الكاتب البارع أن يقدّمها فى أدبه تقديماً مباشراً - هى التى تغشى ظلالها على مواقفه الفكرية من الحياة على العموم ، وفى مصبّها تنصبّ أخيراً جميع أفكاره.

إن نجيب محفوظ كاتب إشتراكى يُعرف لعمق تفكيره الفلسفى وله مواقف فكرية واضحة طالما تجلت فى أدبه. إن هذا التيم عن فلسفة الحياة عند نجيب محفوظ يبدو فى أصله مستنبطاً أو مستلهما من الفكر الأوروبى القائم على مفهوم ''المأساة الإغريقية'' فهو يصوّر الإنسان - بدءا من رواياته الفرعونية - فى صراع دائم مع الأقدار ويصوّر الحياة على أنها فى أصلها مأساة لا محالة ،ولا يختلف عنه فى ذلك المرحلة

☆ محاضر فى قسم اللغة العربية بجامعة الاسلامية على جره

الثانية من أدبه الروائى الذى يقدم الاشتراكية بلسما لجميع آلام البشرية، فحول محور هذا المفهوم المأساوى القاتم تدور جميع رواياته الإجتماعية ذات النزعةالاشتراكية أيضاً، ويحاول الإنسان على حد تصوير الكاتب مجبراً مضطراً الى أن يخلق لهذه الحياة من معنى ويخترق المجهول ، ولكن معالجته لمشكلة سرالوجود عبارة عن محاولة يائسة تتسم بحيرة دائمة ومأساة محتومة نهاية المطاف.

إن الإشتراكية نفسها ـ من هذه الناحية ـ لم تكن عن مؤسسها الأول غاية نهائية فى حدذاتها. فقد أعار ماركس ـ فى كتاباته من أيام الشبالهتماماً واضحاً بغاية العمل البشرى. ففى "المخطوطات الفلسفية الاقتصادية لعام١٨٤٤م" ـ بيت قائم بمنتصف طريقه الفكرى ـ أبدى ماركس ظنه فيما عسى أن تكون المرحلة التالية للثورة الإشتراكية قائلاً " إن نفى الملكية الخاصة ليست بغاية الإشتراكية إذ أن مجرد ما تقوم به الإشتراكية هو ايجاد ما سمّاه ماركس" شيوعيه غير ناضجة أوخام". الشيوعية الخام لا تعدو من أن تكون ملكية خاصة الا أنها تقوم بتعميمها، و إنها لا تمنع الأطماع بل تعممها، وإنها لا تلغى العمالة بل تجعلها تمتدّ إلى سائر البشر. أما الغاية النهائية من الإشتراكية من حيث طبيعية تامّة التطور(Fully developed naturalism) أو إنسانية، فهى التجاوز عن الاشتراكية، عن الحاجة ـ وبالتالى عن التاريخ ـ إلى عالم يحسم المشكلة القائمة بين الوجود والجوهر، و بين التعرضية (Objectification) وتحقيق الذات، وبين الفردية والإجتماعية ،علم

لا يشعر فيه أحد من بنى الجنس البشرى بأنه موزع أو غريب عما يعتقد بأنه جوهره، بوصفه مخلوقاً اجتماعياً ، وبوصفه شخصاً حراً فى بناء مستقبله[١] ".

إنه من المكونات المثالية الطوباوية بل الدينية للنظرية الاشتراكية وهى"أمنية" طالما تطلع الإنسان إلى تحقيقها منذ القدم." أمنية" لا زالت عالما وراء المنال[٢]".

وربما إنها هى الفكرة التى عبّر عنها المرشد الفكرى لنجيب محفوظ والمفكر الإشتراكى سلامة موسى فى مقالٍ له بما يلى:

"وقد تعود الفلسفة إلى النظر الصوفى عندما تتغير الأسس الاقتصادية الحاضرة ويتوافرالعيش لجميع الناس وتشمل العالم طمانينة وركود يشبهان الحال التى تسود الأمة فى النظام الزراعى[٣]".

وتجلت الحيرة نفسها فى نهاية المقال الأول الذى استهل به الكاتب نجيب محفوظ حياته الكتابية تعريفاً بالاشتراكية حيث يقول:

"والكمال فى الدنيا ضرب من المستحيلات وحتى لوخاب أملنا فى الإشتراكية فهى أفضل من الحالة الحاضرة .....[٤]"

ويقول الكاتب بموضع آخر عن الحيرة إزاء المجهول:

"الموت دائماً كان يغزو خيالى بإلحاح وإثارة .....
وأننى أجد فرقاً بين مواجهة الموت بالبكاء و مواجهته بالدهشة والتساؤل والحيرة. الموت فيه عنصر محير ولا معقول . وهذا العنصر يتضح بشكل حاسم فى الموت الجزافى .....[٥]"

ونرى انعكاسات هذا الفكر فى حيرة كمال عند احتضار السيد:

"وإن هذه الساعة الأخيرة سيبقى سراً إلى الأبد، و إن وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب ....." ٦ .

وهذه الحيرة هى التى تتجلى فى تيار شعور طويل لكمال ملوّن بسوداوية وجودية الحادية عميقة ٧

ويخرج نجيب محفوظ من هذه الحيرة بنتيجة واحدة وهى أن الحياة مأساة. أو نوع من العبث كما ينعكس فى كثير من مقولات شخصيات رواياته المختلفة، فيقوم بتدسيس الفكرة على لسان الشاب الخائب أحمد عاكف فى خان الخليلى قائلاً:

"الحياة مأساة والدنيا مسرح مملّ ، ومن العجب أن الرواية مفجعة ،ولكن الممثلين مهرجون، من عجب أن المغزى محزن - لا لأنه محزن فى ذاته، ولكن لأنه أريد به الجد فأحدث الهزل كل الهزل، ولما كنا لا نستطيع فى الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا فإننا نبكى عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة و نتوهم أن الرواية مأساة والحقيقة أنها مهزلة كبرى ٨.

وتتكرر الفلسفة فى قول الشخصية القذرة زيطة فى زقاق المدق بما يلى:

" واى واحد منا تستقبله الدنيا كملك من الملوك، ثم يصير بعد ذلك مايشاء له نحسه، هذا خداع حكيم من الحياة، وإلا فلو أنها أفصحت لنا عما فى ضميرها من اللحظة الأولى لأبينا أن نفارم الأرحام..." ٩

فكأنه صدى لفكر سلامة موسى المتمثل فى قوله التالى :

"ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر، نخرج إلى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير، من أبوين لم نخترهما. ونعيش فى وسط تتكون فيه نفوسنا وتملى علينا فيه العقائد و طرز السلوك ، قبل أن نستطيع أن نغيره. ثم تتوالى علينا الحوادث التى تقرر إتجاهنا فى الحياة وتقع بنا الكوارث التى نتكيف بها وننزل على مقتضياتها. و على الرغم من أننا جميعاً نصاغ فى قالب البشرية فإن كلاً منا فى هذه الدنيا قد كتبت حظوظه أو أكثرها قبل أن يولد إن خيراً وإن شراً"[١٠]

ويتجلى هذا الشعور بالشقاء بفرق بسيط فى فكر كمال، الشخصية الروائية التى مثلت التطور الفكرى للكاتب نفسه. يعتبر كمال الحياة "معركة فاشلة" ويقول وهو يحاول تبديد غيوم اليأس الحالكة بتجربة الخمر والنساء :

" الايمان بالله هو الذى جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على الحيرة وهو ليس فى الحقيقة إلا نوعاً من العبث....."[١١]

" ولكنى متأكد إنى تعس رغم سلوكى فى الحياة الذى ضمن لى حظى من مسرات الفكر و لذات الجسد، كالقطار الذى ينطلق فى قوة ولكنه لايدرى من أين وإلى أين. والشهوة حسناء طاغية سرعان ما يصرعها القرف، ويهتف القلب ناشداً فى يأس اليم السعادة السرمدية عبثاً، لذلك فالشكوى لاتنقطع والحياة خدعة كبرى وينبغى أن نتجاوب مع حكمتها الخفية كى نتقبل هذه الخدع راضين ، فنكون كالممثل الذى يعى دوره الكاذب على المسرح، ولكنه رغم ذلك يعبد فنه....."[١٢]

ويقول بموضع آخر عند موت امه آمينة :

''والنظر إلى الحياة كمأساة لا يخلو من روما نتيكية طفلية والاجدر بك أن تنظر إليها فى شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هى الموت''[١٣].

ويقول الكاتب نجيب محفوظ فى مقابلة :

مادامت الحياة تنتهى بالعجز والموت فهى مأساة بل إن تعريف المأساة لا ينطبق على شئ كما ينطبق على الحياة وقد نرى هذه المأساة مبكية وقد نراها مضحكة وقد نراها مبكية مضحكة، ولكنها على أى حال مأساة وحتى الذين يرون الحياة معبراً للآخرة فتعريف المأساة ينطبق على جزء ها الأول[١٤].

ولكن الإنسان - رغم مصيره المأساوى المعلوم فى هذه المعركة الفاشلة - مكلف بأن يخوضها و يخلق لها أو بالأولى لعبثهامن معنى ونجد الكاتب هكذا يؤمن بقيمة اجتماعية للحياة الإنسانية مما يؤدى به بدوره إلى رغبة كامنة فى اقامة مجتمع اشتراكى :

يقول كمال الحائر فى الثلاثية : ''كثيرون يرون ان من الحكمة أن نتخد من الموت ذريعة للتفكير فى الموت والحق أنه يجب أن نتخدمن الموت ذريعة للتفكير فى الحياة''[١٥].

وتتكرر الفكرة نفسها فى قول نجيب محفوظ : ''ولكن مأساة الحياة مركبة وليست بسيطة ،اجل أن تفكيرنا فيها كوجود يجردها من كل شئ الا الوجود والعدم ، ولكن تفكيرنا فيها كمجتمع يرينا مآسى كثيرة مفتعلة من صنع الإنسان ، كالجهل والفقر والاستعباد والعنف والوحشية إلى آخره، وهذا يبرر تاكيد نا على مآسى

المجتمع إذ انها مآسى يمكن معالجتها ولأننا فى معالجتها نخلق الحضارة والتقدم بل ان التقدم قد يخفف عن بلوى المأساة الأصلية وقد يتغلب عليها، وقد قلت ذلك فى أولاد حارتنا، قلت إن معالجة الشرور الاجتماعية بالاشتراكية يفرغ الإنسان لمعالجة مأساته الأولى وهى الموت، فاذا انقلب اهل الحارة - حارة الجبلاوى - بفضل توزيع الوقف بالمساواة والعدل و الإنسانية - اتيحت لهم الفرصة ليكونوا جميعاً سحرة علماء ليعكفوا على حل مشكلة الموت.

وإذاً فحل مأساة المجتمع قد يحل فى النهاية مأساة الوجود أو يخففها وهى على أى حال تعطى الحياة معنى يستحق أن نعيش من أجله. اما التركيز على مأساة الوجود مع تجاهل مآسى المجتمع فلن يحل مأساة الوجود من جهة و يحول العالم إلى عبث و بكاء أو ضحك كالبكاء"[١٦].

ويظهر موقفه الالتزامى و تاكيده على القيمة المادية والعملية للحياة الدنيا فى حديث له بما يلى:

" أنا افترضت جدلا التسليم مع العبثيين بأن حقائق الحياة منهارة. عندئذ تصبح استجابتهم ضرباً من الواقعية ولكنى لا أرى رأيهم طبعاً. وفى رأيى ان الحقائق كما يرونها ناقصة لأن الواحد منهم يرى الميلاد والموت فتصدمه النهاية المفجعة وتصنع مزاجه المتشائم دون أن ينظر فيما بين الميلاد والموت - فى الحضارة النامية التى أقنعت كثيرين بالاستهانة بفاجعة الموت نفسها والنظر فى الحياة النظرة الصحيحة القويمة "[١٧].

ويلخص نجيب محفوظ هذا التعبير عن موقفه" المؤثر للعاجلة على الآجلة" فى حديث له ثالث بأسلوب ملقف :

"..... إذا شئت أن اختار لك قوى تدفع بالإنسان فى معترك الحياة وتحكم وجوده كله فهى الخبز والموت....

الخبز رمز للإشباع المادى والثقافى والروحى كله وهو غاية الإنسان. كما أن مشكلة الموت يمكن التغلب عليها بطرق مختلفة، بإعتناق عقيدة الخلود بعد الموت. باعتناق المبدأ العلمى البسيط : ما يوجد لا يعدم إذ أن العلم يعرف التحول ولا يعرف العدم. أو بالتطلع إلى انتصار بعيد جداً يستخدم الإنسان فى تحقيقه كل ما وهب من قوى روحية ومادية "[١٨].

وهكذا فإن هذه الحياة كما تبدو للشاب الخائب أحمد عاكف فى خان الخليلى "حياة صماء قاسية كالتراب ولكنها تنبت الأمل كما ينبت التراب الزهرة اليانعة "[١٩].

ولعله من الطبيعى أن تثبت هذه الفلسفة بأنها تربة صالحة لنموالموقف الوجودى الاباحى من الحياة الذى نسمع صداه عند بعض الشخصيات الروائية فى أدبه من أمثال محجوب عبد الدائم الذى "كان صاحب فلسفه استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه، وفلسفته الحرية كما يفهمها هو وطظ اصدق شعار لها.هى التحرر من كل شئ، من القيم والمثل والعقائد والمبادى، من التراث الاجتماعى عامة وهو القائل لنفسه ساخراً : "إن أسرتى لم تورثنى شيئاً أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به " وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه فهو يعجب بقول ديكارت: "أنا أفكر فانا موجود"، ويتفق معه على أن النفس أساس

الوجود، ثم يقول بعد ذلك إن نفسه أهم ما فى الوجود ! وسعادتها هى كل مايعنيه، ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الاخلاقية والدينية جميعاً، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة فى سبيل نفسه وسعادتها ، وإذا كان العلم هو الذى هيأ التحرر من الأوهام، فليس يعنى هذا أن يومن به أو أن يهبه حياته، ولكنه حسبه أن يستغله و أن يفيد منه، فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين، وإنما غايته فى الدنيا اللذة والقوة بأيسر السبل والوسائل ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة....''[٢٠]

وليس محجوب الفوضوى فحسب ولكن ينعكس الفكر الوجودى بوضوح فى شخصيات اخرى من رواياته أيضاً من امثال حميدة فى زقاق المدق وحسنين فى البداية والنهاية و حتى فى شخصية كمال الذى تعتبر صورة طبق الأصل للتطور الفكرى عند الكاتب نفسه . يقول كمال فى مونولوجه الطويل:

''يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه ، بل شخصه المفرد، كمال آفندى أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط''[٢١]

وإذا صح على حد تعبير نجيب محفوظ نفسه أن لا فكر خارج الحياة...لا فكر خارج الزمان والمكان....لا يوجد فى التاريخ تفكير مجرد ....واصول كل المسائل النفسية والفكرية ضاربة فى الحياة العادية واليومية.''[٢٢] ، فان هذه الفلسفة ليست من الحياة المصرية فى شئ ، فإنها غريبة دخيلة نبتت فى غير أرضها ونشأت فى غير بيئتها ونجمت عن غير خلفيتها واستوردها الكاتب ليفرضها على

هذا المجتمع العربى من غير حق ولا طائل ويطيب لى هنا أن انهى كلمتى بإيراد مقتطف جميل من احدى المؤلفات لمفكر شرقى عظيم فى هذا المجال بما يلى :

" إن هذه الشعوب - رغم جميع معائبها وجوانب الضعف فيها - لاتزال تحمل تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان، والتضحية والإيثار، والطاعة والانقياد، والحب والاخلاص، التى لا توجد فى أى أمة مادية على ظهر الأرض، إن جماهير هذه البلاد الإسلامية رغم جهلها المؤسف وتأخرها المؤلم خامات بشرية ممتازة يصنع منها نماذج إنسانية جميلة وطراز رفيع من البشر....." ويواصل المفكر فيقول عن موقف الشرق من لحضارة الغربية: "يقف العالم الإسلامى بين طريقين : فاما أن يقبل - مسحورا مسلوب الارادة والتفكير - فلسفته عن الحياة. ويندمج فى تياره الحضارى اندماجا كليا، إن هذا الطريق - فضلاً عن أنه يعنى ردة عامة شاملة وإنتحاراً روحياً ومعنوياً، جهاد لا طائل تحته وسعى لا مبررله ، وهو لا يؤدى إلا إلى صراع عقلى وقلق روحى، وضياع المواهب الإنسانية والطاقات البشرية ... ولا يسمح به الجو والبيئه والمجتمع ولا صلة له بالماضى وكلمابدت محاولة فى هذا المضمار فى أى دولة اسلامية أخفقت، وكلما خف هذا الضغط الاصطناعى وغير الطبيعى عن الشعوب ووجد الناس فرصة لابداء رأيهم وما يحبونه وما يكر هونه، خلعوا هذا اللباس الذى لم يفصل على قامتهم ولم يتلاء م مع طبيعتهم..." [٢٣]

☆☆☆

المراجع

١- ماركس ص: ١١٤ ـ ١٠٤، ١٨٤٤م طبعة ١٩١٩م.

٢- Encyclopedia of Social Scine (P. :531-532).

٣- المجلة الجديدة، يوليو ٢٣٤.

٤- المجلة الجديدة أكتوبر ١٩٣٠م.

٥- نجيب محفوظ يتحدث عن فكره وشخصياته مع الفريد الفرج ـ/ مجلة "الهلال 65 / 9 / 1.

٦- السكرية ص: ٢١٤.

٧- الفصل ٤٠، السكرية

٨- خان الخليلي، ص: ١٤٢.

٩- ص ١٢٨ زقاق المدق)

١٠- محمود الشرقاري: سلامة موسى - المفكر والإنسان، دار الهلال ١٩٦٨م، ص: ٧٦

١١- (ص ٤١ قصر الشوق)

١٢- (ص ٤١ قصر الشوق)

١٣- (ص ٣١٣ السكرية)

١٤- (الحياد الفني طريقاً للانحياز الفكري/ غالي شكري/ مارس ١٩٦٣م)

١٥- (ص ٣١٤ السكرية)

١٦- (الحياد الفني طريقاً للانحياز الفكري /غالي شكري /حوار مارس ١٩٦٢م)

١٧- (نجيب محفوظ يتحدث عن فكره وشخصياته مع الزيد فرج من الهلال 65 / 9 / 1)

١٨- (نجيب محفوظ يتحدث عن فكره وشخصياته الفريد فرج الهلال 65 / 9 / 1)

١٩- (ص ٢٥٦ خان الخليلى)

٢٠- (ص ٢٥ القاهرة الجديدة)

٢١- (ص: ٢٧٣ السكرية)

٢٢- (نجيب محفوظ يتحدث عن فكره وشخصياته

٢٣- (ص: ٢١٨-٢١٧ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية) ابى الحسن على الندوى

☆☆☆

عرض ومراجعة على كتاب خطى

"الثورة الهندية مع القصيد تين الهمزية والدالية"

للعلامة فضل حق الخير آبادى

سرور عالم الندوى☆

إن الهند لا تزال تحت الحكم الإسلامى أكثر من ثمان مائة عام من حملات محمود الغزنوى إلى حكم الامبراطور أورنجزيب الذى وحد الهند كلها تقريباً تحت حكمه، لكن هذا الامبراطور كان آخر امبراطور قوى فى أباطرة المغول المسلمين، فقد جاء بعده خلفاء ضعاف انكمش نفوذهم، وأخذت الدولة الإسلامية الواسعة تتهاوى من فوق القمة بالخلافات والحزازات الداخلية وتتفتت شيئاً فشيئاً،

فبهذا التفتت والضعف استفاد التجار الأوروبى و وضعوا العراقيل وأخذوا يتصارعون على اللقمة الدسمة الكبيرة، وبسطوا نفوذهم على البلاد، وزادوا عتوا فى تنفيذهم وخصوا المسلمين

☆ قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عليكره الإسلامية

بأنواع من التنكيل والاضطهاد البشع، فقام الامير سراج الدولة فى البنغال والسلطان تيبو فى الجنوب بالهجوم عليهم حتى وقعت الثورة الجامحة سنة ١٨٥٧م لانقاذ البلاد من هذا التسلط والدمار، لكن الاقدار لم تساعدهم وهم فشلوا فيها، فبعد هزم المسلمين وفشلهم قد عمل المستعمرون الغاصبون على ازلالهم ومطاردتهم وحكموا عليهم بالإعدام والنفى والقضاء على كل حيوية فيهم ،لأن المسلمين هم الذين كان بيدهم لواء الثورة وكانوا فى طليعة الثوار فى كل الهند، فتتا بعت عليهم النكبات حتى يطحنوهم طحنا ويفتكوا فتكاً ذريعاً، اننى لا احاول ان اقدم تفصيلاً، فقد تقشعر منه الجلود و يعجزالقلم عن البيان، سجل التاريخ بمداد من دموع العيون الباكية ودماء القلوب المقروحة هذه المأساة والجريمة والعدوان،

فقد وقع العالم الكبير والأديب اللبيب والشاعر الشهير العلامة فضل حق الخير آبادى (١٢١٢ه ١٢٧٨ه) فريسة لهذه النكبة والمحنة والابتلاء، ويتهم بالخروج على الحكومة الانكليزية سنة ثلاث وسبعين ومائتين والف من الهجرة، فحبس ونفى إلى جزيرة من جزائر السيلان، حتى توفى فيها سنة ١٨٦١م / ١٢٧٨ه،

فإنه كتب فى هذا النفى والحبس كتاباً وقرض قصيدة عن هذه الثورة فى اللغة العربية وسماه "الثورة الهندية مع القصيدتين الهمزية والدالية"

وهذا الكتاب موجود فى المكتبة العامة "مولانا آزاد" لجامعة عليكره الإسلامية خطياً ، الذى يتحدث عن هذه الفترة

وأو ضاع الهند المظلمة الحالكة، ويمثل وجهة النظر الثورية، والآن اقدم امامكم كلمات عديدة حول عرض ومراجعة هذا الكتاب الخطى المهم فى اللغة العربية للكاتب الهندى العظيم العلامة فضل حق الخير آبادى ٠

يقع هذا الكتاب فى ١٢٠ صفحة من المقاس المتوسط الذى صدر فى عام ١٢٧٦ من الهجرة، كما تدل عليه هذه العبارة التى كتبت على الصفحة الاخيرة، وهى

"تمت القصيدتان فى شهر رجب سنة ١٢٧٦هـ يعنى الفاً ومائتين وستاً وسبعين من الهجرة المقدسة النبوية على صاحبها ازكى الصلاة و التحية وانا محبوس فى الجزيرة العربية، نجانى الله سبحانه منها برحمته الوسيعة وقدرته البديعة بجاه حبيبه وآله وعترته عليه وعليهم ازكى الصلوت واسنى التسليمات"

وإنه جعل الكتاب للنثر والشعر، أما النثر فهو يشتمل على ٦٢ صفحة وبعدها كتبت قصيدتان الهمزية والدالية، القصيدة الهمزية تشتمل على ١٨٨ بيت من ٦٣ صفحة إلى ٩٩ صفحةً، والقصيدة الدالية على ١٠٠ بيت من ٩٩ صفحة إلى الصفحة الأخيرة،

فإن المؤلف قد تحدث فى النثر عن المحن التى حلت بالمسلمين حين النفوذ الانجليزى قد بسط فى سائر الهند وهم تسيطروا عليها، وعن الظروف القاسية التى مرت بها هذه شبه القارة فى عصورهم كالتنكيل والتقتيل والتدمير والتهجير والهتك

والفتك والنهب والارهاب والاحداث الفاجعة والوقائع المؤلة والغارات الهدامة والتضحيات المعصومة، بايضاح وصراحة،

ثم يتحدث عن تزايد النفوذ وانتشار الافكار المسيحية فى ابنائها، ثم جعل صفحات عديدة للحديث عن الخلاص والنجاة من الاضطهاد والاعتداء والعدوان والتعسف و دعا الله له بالتواضع والتضرع ، فى أسلوب مسجوع ممتع على نمط بديع الزمان الهمدانى والحريرى، فوجد فيه السجع والقوافى والتعقيدات والغرائب، لأن هذا الأسلوب أسلوب ذلك الزمان كان شائعا شاملاً بين أوساط العلم والدين والأدب فى هذه شبه القارة الهندية خاصة كان لاينبغى لأى أديب وكاتب أن يخرج بهذا الطراز،

والآن أقدم شيئاً ملخصاً من هذا الكتاب الممتع يدل على منهجه وغايته، وهو يقول بعد الحمد وا لصلوٰة،

"من قصتها ان النصارى البراطنة ، شحنوا صدورهم بالشحناء الباطنة' بعد ما تسلطوا على ممالك الهند واقطارها، قراها وامصارها واستولوا على حدودها وثغورها، واحاطوا باعجارها وصدورها، وذلّلوا اعزة روسائها بالاستعصاء، ولم يذروا فيها من يُبدى لهم قرنه بالاستعصاء، هموا بان ينصّروا كلا من قطانها وسكانها ورؤسها ووجوهها واعيانها،

ليصير الناس كلهم كمثلهم من ملاحدة ، متوافقين على ملة واحدة..... منهم من اعتدى واساء وارتكب الفظاظة والقساء فقتل الولدان والنساء .....فجمع النصارى على ذالك الجبل

للحرب العوان، كثيراً من الجنود والاعوان ، فمن جنودهم اشياعهم البيضان، و منهم اجرائهم من اراذل الهنادك الخمآن، والمسلمين الذين ارتدوا بعلاء النصارى بعد الايمان، باعوا دينهم ببخس من الاثمان،

فغالوا كثيراً من النبلاء، وعذّبوا حباً جماً من هولاء بالقيود والجلاء وما بشق جداً من اشد البلاء،

ولكننى ارجو رحمة ربى العزيزالرحيم، البرالرؤف الكريم، الذى ينجى الضعفاء العاجزين من الفراعنة الجبابرة، فهو الجبار على كل جبير لكل كسير ولكل فقير و خسير، وهو الذى ينجّى نوحاً من الغرق و إبراهيم من الحرق، ويونس من بطن النون، وبنى اسرائيل مما كانوا يعانون، وكفى موسى وهارون، فرعون وهامان وقارون، وكفى المسيح مامكر الماكرون وكفى حبيبه المصطفى ماكان يمكربه الكافرون، فإن رمقنى صعوب، ولحقنى خطوب ومحقنى كروب، وحاقت بى ذنوب فلست بفضله بمبتئس، ولا من رحمه بمتّاس،

وأنا مظلوم مهضوم مضطر، ومسكين مستكين معتر،ادعوه مناحياً وابتهل إليه راجياً، وأناديه متضرعاً، بحبيبه إليه متذرّعاً،..... انه سامع الدعا واسع العطاء ، دافع البلاء، فهو الذى ارجوه لجلاء حزن الجلاء وبلاء حسن البلاء من الآلاء، يارب فانجنى مما انا فيه، يا معّول المرتجين ياموئل الملتجين"

أما الحصة الشعرية التى تشتمل على القصيدتين الهمزية والدالية فهى قد صيغت بالقلوب المقروحة الجياشة والعيون

الباكية الفياضة، فاض هذا الشاعر الضعيف الأسير قريحة فيها على استيلاء المستعمرين وسوء حال الهنديين، اولهما الهمزية تحكى همزات الشياطين ثانيتها الدالية دالة على مايعانى وهما صورتان واضحتان، ومرآتان صافيتان للحياة ذلك الزمان التى محصورة بالوجع والتدمير والصعب والعدوان، ومحفوفة بالحبس والغل والإعدام والطغيان، بجودة السبك وروعة الاداء ومتانة التركيب وفخامة النسج، تظهر فيهما سيطرة الانجليز على هذه شبه القارة، واحوال الهند المؤلمة وأهوالها المدهشة والعيش فى المنفى والقيود الشاقة بغاية البراعة والقدرة فى هذا المجال الأدبى،

أقدم أبيات عديدة على سبيل المثال من القصيدة الهمزية التى تشتمل على ١٨٨ بيت، وهو يقول:

لجوى له لجوانحى ايراء • جمد الدموع وذابت الاحشاء
ولما الم من النوائب والنوى • يبكى الصديق وتشمت الاعداء
حلّت عظام مصائب جلت بها • وهن العظام ودقت الاعضاء
اذاكنت فى عيش رغيد رابغ • هجم الكروب وفاجئت ارزاء
شجن الحقود وصدورهم حتى بدت • بالضغن من افواههم مغضاء
قد ضيقوا عيشى علىّ فعفته • ونسيت عيشاً كان فيه رخاء
ياويل سجن لا مبال بساحة • وكنيفه مافيه قط خلاء
منعوا اشدّ المنع ان يلقانى • الأحباب والأخوان والابناء
قد مات احياء من الأسراء • والباقون لا موتى ولا احياء

ما فيه للموتى صلوة جنازة • وثرىً ولا كفنٌ لهم وغطاء
قد سلّط الانصار فى امصارنا • أن صار انصاراً لهم سفهاء
كم خرّبوا بلداً ويذروا به • بلداً فصار كأنه بيداء
لم اقترف ذنباًسوى ان ليس لى • مع هؤلاء مودّة وولاء
يارب عجّل أن يكون لما شجاً • فى من شجونى فى الحلاء جلاء
لم اقترف عملاً يثاب وإنما • قولى وفعلى وسمتة واناء
لكن فضلك واسع يرجى به • عن علتى ومآثمى الابراء

وأما القصيدة الدالية فهى تشتمل على ١٠٠ بيت منها

عُودى فعودى مريضاً دايه عادى • أشفى على الحين حتى عاده العادى
داء دواه عياء لادواء له • حِمامه حاضر من سقمه البادى

ثم يقول فى الانجليز ونكباتهم القاسية

قد انجدوا واغاروا قتّلوا نهبوا • وافدوا فى النواحى كل افساد
هدوا المعابد واجتاحوا المساجدو • اغتالوا عباداً غلوا فى قتل عُبّاد
من كان منحرفاعن طوعها فشلوا • لم يسمعوا أمرحكام وقوّاد
حُبست فى السجن مهجوداً ولم يذروا • عندرفيقاً كخبّاز وتجّاد
قدكسونى كساءً بعدما سلبوا • الكساء وانتزعوا لبسى وازدادى
أعطواوطاء غليظاً شائكاً خشناً • لنوم لين بلين الفرش معتاد،

هكذا ينتهى هذا الكتاب الممتع على نموذج من النثر والشعر للعلامة الخير آبادى، يصور بهما تصوير أوضاع ذلك

الزمان محفوفة بالعدوان والطغيان، ويستحق أن يخرج من الذبول والذهول إلى النشر والذيوع لكى يستفيد الناس ويطلع على اوضاع الهند فى عصر الانجليز.

☆☆☆

ابن زيدون ومآثره النثرية
"نظرة اجمالية"

الدكتور محمد أحمد☆

عصر ابن زيدون :

عصر ابن زيدون هو عصر ملوك الطوائف وهذا العصر مملوء بالفتن المتواليات والمتتابعات فى جانب .وهذا العصر جدير بالدراسات الأدبية القائمة على مناهج علمية دقيقة لأنه عصر زاخر بالشخصيات الأدبية الفذة حافل بالانتاج الخصب الرائع ولأنه من أغزر الينابيع الفذة التى نهل منها الغرب وانتفع بها فى تشييد حضارته الحديثة بشهادة كثيرين من أعلام الباحثين المنصفين.

ونرى هناك تنافساً شديداً بين ملوك الطوائف فى توسيع مملكته وفى الاشادة بذكره وكذلك كانت بينهم منافسة قوية فى ازدهار العلوم والفنون والآداب و تزيين البلاد.

طوى ابن زيدون حياته كلها فى ظلال أمراء مدينتين

☆ قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة عليكره الإسلامية.

المشهورتين قرطبة واشبيلية ونراه يتنعم ويتلذذ بروائع النعم الوافرة بتمكنه على المناصب العالية وبحبه مع ولادة كما نراه يتفجع بنمامة خصومه وحاسديه ومنا فسيه ويتلقى مرارة السجن. ومن بين سعة حياته المنعمة وضيق حياته المظلومة نجده لايمل ولايخشى بل يأتى ذكائه الفطرى بأشياء لا مثيل لها ولا نظير . ونراه يسبق من منافسيه وخصومه و يتخلص من الفتن المتوالية تارة بالزجر فى ميادين الأدب والشعر وتارة بتمكنه على المناصب من حيث نبوغه فى العلوم والأداب ومنزلته الرفيعة فى صدور الملوك والأمراء .

اسرة ابن زيدون :-

ينتمى ابن زيدون من جهة أبيه إلى بنى مخذوم. وبنو مخذوم بطن من لؤى بن غالب من بطون قريش. ولانعرف عن أجداده متى وفدوا إلى الأندلس، إن أسرة ابن زيدون تعد من الأسرات الدينية المؤثرة فى الأندلس. كان أبوه من فقهاء قرطبة وأعلامها المعد و دين وكان إلى هذا ضليعاً فى علوم اللغة وبصيراً بفنون الآداب وهذه الصفات جميعها جعلت له شأناً خطيراً فى البلاد. فكان الحكام يستشيرونه فى الخطير من أمورهم ويستفتونه فى المشكل من شئونهم. وكانت المشورة والفتوى محصورتين فى عدد قليل من أكابر الفقهاء . ونجد الروايات والاشارات أنه قد تتلمذ أمامه التلاميذ فكأنه كان يشغل بالتدريس . ولكنه مات حينما كان عمر ابن زيدون فى الحادى عشر . ولكننا نظن أنه كان

أول مدرس لا بنه . فقد بدأ تثقيفه وتهذيبه وتدريسه من أول عمره . لكنه ما اتيح فرصة طويلة حتى قبضت عليه يد الموت الطاحنة . وبعد وفاة أبيه إعتنى له جده لأمه فى تنشئته وتهذيبه وتثقيفه هو كان أيضاً من العلماء المرموقين و أنه ذوبصر بالحديث. وكان من أضبط الناس لكتبه أجمعهم لذخائر الروايات . وله تأليف جمع فيه كلام أبى زكريا يحى بن معين فى ثلاثين جزأ وكان يتولى النظر فى الأوقاف بقر طبة . وكذلك كان أبو ابن زيدون من العلماء المرموقين . ولى القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والسوق بقرطبة . وهو منصب جليل لا يقل عن منصب الوزير . فما ظننا فى هذه الأسرة التى نبغ فيها العلماء والفقهاء والأجلاء البارزين .فكتب التاريخ شاهدة على أنهم أشرفوا على تربية ابن زيدون بعد أن شكل أباه طفلا وظل يرعاه حتى جاوز إبن زيدون الأربعين

وكذلك نراه يثقفه ويهذبه ويرعاه أصدقاء أبيه الممتازين البارزين .

ولد ابن زيدون سنة ٣٩٤ه على أرجح الأقوال وجعل يتدرس ويتثقف ويتهذب على أيدى الرجال المذكورين . ولذلك نبغ ابن زيدون فى شتى العلوم والآداب وملأ قلوب معاصريه بالحب والرفق واللين وفى جانب آخر من الحقد و البغض والحسد .

آثار ابن زيدون :-

إننا نراه ينظم الشعر ويدبج الرسائل ويؤلف التاريخ وقد أوفى حقه فى كل ميدان من العلم والأدب . مع أننا نراه مفوضاً

إليه أمور السفارة والوزارة والحجابة وغيرها من المناصب العالية وهذه المناصب الرفيعة لاتتصور لأحد إلا أن يكون فائقاً فى مجال العلم والأدب . ونجد إبن زيدون متمكنا على المنزلة الرفيعة من العلوم والآداب . ولذلك سهل له الوصول إلى المناصب الرفيعة . وما كان له أن يلى منصب النظر على أهل الأمة إلا إذا كان عالماً دينياً ولا منصب السفارة أو الوزارة إلا إذا كان من رجال السياسة الممتازين.

خلف لنا ابن زيدون مآثره المتنوعة وحفظها لنا المؤرخون من الشعر والنثر. هنا نحب أن نكتفى بالقاء الضوء على نثره الوصفى والنقدى والتاريخى ورسائله .

نثره الوصفي :-

بقيت لدينا مقطوعة وصفية صاغها ابن زيدون فى تصوير ليلة طواها فى صحبة حبيبته ولادة . ذاق فيها طعم السعادة والنعيم، ثم أتبعها بتصوير موقف مغاضبة وعناد . ويظهر من سياق الوصف أنه صور موقفين متغايرين أو ليلتين مختلفتين . أولا هما سعيدة حافلة بالمتع واللذات وثانيتهما حافلة بالغيرة والغضب والملاحاة .

ولقد إلتزم الكاتب فى وصفه الفقرات المسجوعة وحشد فيه ظلالاً من الاستعارات والتشبيهات ورصعه بالمحسنات البديعية ومزج فيه بين وصف الطبيعة ووصف الحبيبة . فتجلت فى نثره خصائص شعره فى النسيب وتبدو فى هذا الوصف من

فن المقامات الذى إنتشر بالمشرق وانتقل إلى المغرب . ويظهر من عباراتها أنه كتبها فى كهولته ليصور فيها ذكريات عزيزة على نفسه و ليسترجع بها صور الشباب كما يبدأ بقوله . "كنت فى أيام الشباب ....." على أننا نأخذ عليه فيها أنه تكلف كثيراً فى صياغتها حتى كادت الزخارف اللفظية تطغى على عاطفته المشبوبة وهواه الغلاب .

النثر التاريخي :-

نرى رغبة ابن زيدون بالتاريخ فى آثاره الشعرية والنثرية وقد لاحظنا أن المقرى[١] ذكر بأنه ألف كتاباً جامعاً فى تاريخ بنى امية بالأندلس و"سماه التبيين" فقد يمكن أن غرام ابن زيدون بالتاريخ وثقته بنفسه ومباراته للمشارقة حملته على أن يؤلف كتاباً جامعاً منافساً لكتاب المسعودى المسمى "بالتعيين"[٢] فقد ضاع كتاب ابن زيدون فى التاريخ . وليس أمامنا من صور نثره التاريخى إلا ما ذكر المقرى من كتاب ابن زيدون إقتباستين .

النثر النقدى :-

حسبنا أن نذكر ما حفظ لنا المقرى[٣] نصاً نقدياً لا بن زيدون حيث يقول كتبت ولادة إلى ابن زيدون وقد حثته على

١ - نفح الطيب ١٢٣/٢

٢ - نفح الطيب ١٢٣/٢

٣ - نفح الطيب ٥٦٤/٢

أن يبدى لها ما يجد على ما فيه نقداً وختمتها بقولها :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً ◆ بكل سكوب ها طل الودق مغدق

فرد عليها وكتب فى أثناء كلامه بعد الشعر " وكنت ربما حثثتنى على أن أنبهك على ما أجد فيه عليك نقداً وإنى انتقدت عليك قولك "سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً " فان ذا الرمة وقد انتقد عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة :

ألا يا اسلمى يادار ميّ على البلا
ولازال منهلاً بجر عانك القطر

مع أنه قدم الدعاء بالسلامة و أن المستحسن قول الآخر :

فسقى ديارك - غير مفسدها
صوب الربيع وديمة تهمى [١]

وخير الشعر عنده ما وضحت معانيه ورقّت ألفاظه بحيث يتلفقه الخاطر بلاكد ولاعناء . وكذلك ينبغى فى صياغته أن تكون الألفاظ متجانسة متقاربة تسرى فيها روح واحدة . ومن سمات الشعرالجيد أنه ينفذ من السمع إلى القلب مباشرة فى سياق مطرد منضود . فهذه هى أقوال ابن زيدون فى النقد الأدبى.

الرسالة الهزلية :-

إن الحديث عن الرسالة الهزلية لا يمكن فى حال من الأحوال فصله عن الظرف السياسى الذى صيغت فيه . بل يمكن القول

١ - نفح الطيب ٢/٥٦٤ - ٥٦٥

بأن كل حرف فيها يدل على ذلك الظرف كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى إبن عبدوس حينما بلغه أنه أرسل إليها إمرأة تستميلها إليه وقد سمع بأنها ردت وسيطة ابن عبدوس رداً غير مشرف وقد استهل ابن زيدون رسالته. هذه بالهجاء المر إذ جمع فى شخص مهجوه كل النعوت القبيحة والصفات المرذولة. وقد أوسعه فيها تهكما و أشبعه سخرية .

يرى الباحثون أن ابن زيدون كان متأثراً فيها برسالة "التربيع والتدوير" التى صاغها الجاحظ فى السخرية من أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادى . والأغراض التى قصدها ابن زيدون فى رسالته محدودة . ولكنه أسهب فيها إسهاباً مملا فى ذكر الأسماء والحوادث التاريخية بمناسبة وغير مناسبة حتى جاوزت السبعين إسماً وبعض هذه الأسماء وهمية وبعضها رمز إليه ولم يذكره . وبعضها مجهول غير محدد . ولم يكتف بهذا بل أكثر فى رسالته من الاقتباس والتضمين . وبالغ فى استعمال المترادفات مبالغة خرجت عن المألوف . وقد أقذع فى بعض عباراتها واندفع فى هجومه فمس حبيبته مساعنيفاً بحيث أظهرها فى صورة البغىّ الهلوك دون مبرر لهذا الهجوم وجنى من وراء هذا إنصرا فها عنه إلى غيره وضيقها به وهجائها إياه . ونجد فى بعض عبارات الرسالة غموضاً مثل قوله "وفصل بين الاسم والمسمى وصرّف وقسم وعدل وقوّم وصنّف الأسماء والأفعال " حتى إن ابن نباتة شارح هذه الرسالة لم يعرف المقصود من قوله "وصرف وقسم وعدل وقوم" فلجأ إلى العلماء يستفتيهم ففسروها له تفسيراً فقهياً غير مقنع وبخاصة لوقوعها بين

إصطلاحين نحويين .

ولكن هذه الرسالة على الرغم من هذه المآخذ تعتبر من مقدمة الرسائل الخالدة فى الأدب العربى لأن أسلوبها التهكمى مثير للضحك من جوانب عديدة.

الرسالة الجدية :-

كتب ابن زيدون هذه الرسالة فى أواخر أيام سجنه حينما يئس من استشفاع أصد قائه المخلصين . يتعطف فيها أميره أبا الحزم بن جهور آملاً أن يثير فى نفسه عوامل الحنان ويذكر إياه خدماته السابقة فى تأسيس ملكه وقصائده السابغة فى الإشادة بذكره . وقد أفرغ الكاتب فى هذه الرسالة جهد وأودعها أقوى وسائله فى التأثير وشفعها بقصيدة عاطفية ضارعاً مؤملاً أن تنفذ إلى قلب الأمير .

وقد رأينا رسالته السابقة كيف تسربلت بثوب التهكم والتهجم فهذه الرسالة هى كذلك وليدة مناسبة . فقد نهج فيها من حشد الأسماء والأحداث والمبالغة فى الاقتباس والتضمين وكثرة المترادفات فهى أوثق وشيجة ذاتية مبدعها وأفصح تعبيراً عن واقعه الفكرى والنفسى . ونحن نعلم أنه ليس لديه فى السجن من أدوات المعرفة سوى وسيلتى الكتابة حبرو ورق . فهذه هى من خير الأدلة على فنية الكتابة فى التعبير عن الاضطراب النفسى .

رسالة إلى استاذه :.

كتب ابن زيدون رسالته هذه إلى استاذه أبى بكرمسلم بن أحمد حينما فر من سجنه ولجأ إلى اشبيلية ولكن ذكريات وطنه وحبيبته أملته على القيام باشبيلية . فرجع إلى قرطبة واختفى بها خائفاً يترقب ، راجياً من استاذه أن يبذل شفاعته لدى أبى الحزم بن جهور . ولكن هذه الرسالة لم تنل الشهرة التى ظفرت بها الرسالتان الهزلية والجدية . لأنهما لفتتا الناس بما تحويانه من معارف وفنون متنوعة . يقال إن رسالته هذه أقوى رسائله جميعاً من الناحية الفنية . وهى إلى هذا أطول أثر نثرى كتبه إبن زيدون عداكتابه التاريخى : مع أنه لم تصلنا كاملة . وقد نفض الكاتب فيها عند الاستطرادات الطويلة المملة ما تخلص من الاستشهاد بالحوادث التاريخية التى كان يحشدبها كتابته لمناسبة أو غير مناسبة وتحلل من قيود السجع إلا فى الأقل النادر . وقد أسلم الكاتب فيها نفسه لعواطفه دون تعمل أو تكلف وصور كل ما ينبض به قلبه من أحاسيس مختلفة .

رسالة ابن زيدون إلى المظفر بن الأفطس:

حفظ لنا على عبد العظيم بقية رسائله الموجزة نقلاً عن الذخيرة - صاغ ابن زيدون رسالته إلى المظفرصاحب بطليوس فى فترة اعتزاله من عمله بعد أن صرفه أبوالوليد بن جهور عنه إقامته عند إدريس بن حمود[1] ويتضح من هذه الرسالة أنه إستشفع

١- ابن زيدون ، تعلى عبد العظيم ، ص: ٤٢٠

لأحد أصدقائه عند الأمير المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس . ولكننا نراه لم يرد إسم صديقه فى هذه الرسالة . ولذلك ظن المؤرخون [١] أن الحالة التى ذكرها إبن زيدون تنطبق على إبن زيدون تمام الإنطباق حتى ليسبق الذهن أنه جعل هذا الصديق ستاراً لنفسه حتى إذا لقى صدراً رحباً وصادفت شفاعته محلا عند الأمير كشفت عن نفسه الستار يمكن أن يكون هذا الرأى صحيحاً على أنه قصد بصديقه نفسه . نحن نجد فى هذه الرسالة عاطفة قوية كأنها حالة الكاتب نفسه.

ويظهر أن الشفاعة نجحت عند الأمير . فقد لحق ابن زيدون ومدحه . بقصيد ة أخرى رفعه فيها إلى أسمى المقامات . ورسالته هذه قليل الاقتباس ولكنها مسجعة حسب فطرته . وتظن عباراته فى هذه الرسالة ناصعة مشرفة أقرب إلى الشعر منها إلى النثر .

رسالته إلى صديقه عامر بن مسلمة :

كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى صديقه عامربن مسلمة بعد أن أحس أن موطنه يضيق عليه وقد ذاق مرارة عزله من السفارة لأبى الوليد بن جهور . توسل بصديقه ليعينه على الالتحاق بخدمة المعتضد وقد ذكر فى هذه الرسالة صديقه بماير بطها من صلاة المودة الأكيدة

التى ورثاها من أسلافها ، فضلاً عن المشاركة فى الميادين

١ ـ أيضاً

الأدبية . ثم شكاله "ما تقتضيه العطلة من إظلام الخاطر وصدأ النفس ، ويجنيه طول المقام من إخلاق الديباجة وإرخاص القدر، ثم ، ذكر أنه إختار المعتضد وآثره على غيره من الأمراء، وعرض ما يستطيع أن يقدمه فى خدمته .

والرسالة على إيجازها قوية أرسل الكاتب فيها نفسه على فطرتها فقل سجعه وندر إستشهاده أو إقتباسه وهى خالية من التكلف مليئة بالعاطفة ل ويظهر أنه وجد مراده وهدفه .

رسالتاه إلى صاحب اشبيلية :

كتب ابن زيدون هاتين الرسالتين بعد أن نجح باستشفاع صديقه أبى عامر بن مسلمة لدى المعتضد . وقد صاغها الكاتب فى التودد إلى المع

تضد بن عباد ومفاوضته فى الرحيل إليه من قرطبة .

قد سلك فيهما منهجاً سياسياً عما كسبه من خبرة طويلة فى معاشرة الملوك فاعتذر من أنه لم يكتب إليه مباشرة بل توسل إليه بأبى عامر بن مسلمة لأنه "قلما إستغنت أوائل مطالب الأتباع لحضرة الملوك عن وسائط تمهد لها وتعتمد أوقات الامكان بها.

ويشكره فى هاتين الرسالتين على ما لقيه لديه من حفاوة بالغة ونعم سابغة ثم اعتذر عن ابطائه فى العودة إلى اشبيلية وطلب إذنه فى العودة . ثم عاد إلى تسجيل ما تلقاه منه من وعود.

أما أسلوب هاتين الرسالتين فقليل السجع بعيد عن التكلف . وإن كانت عباراتهما جيدة السبك ، جزلة الوصف رقيقة العرض . وقد آثر فيهما الايجاز على الاستطراد . وقد نجحت هاتان الرسالتان فى توثيق صلاته بالأمير فعاش فى كنفه بقية حياته متمتعاً بأكرم محل وأقوى سلطان .

مكانته الأدبية :

نرى ابن زيدون كمعاصريه مولعاً بالسجع ولكن إلى حد محدود . فلما تقدم به الزمن وتمرس بفنون الآداب و أساليب الكتاب بدأيتخلص قليلاً قليلاً مما إلتزمه من قيود وأغلال . وقد كان بدأ حياته الكتابية مسهبا فى رسائله، مولعاً بالاستشهاد بالحوادث التاريخية إلى درجة غير مألوفة ، مشغوفاً بالاقتباس . ولكن مع مرور الأيام أقلع عن الاستشهاد بالحوادث التاريخية بعد رسالتيه الهزلية والجدية إلا فيما ندر . قلل من الاقتباس والتضمين إلا فيما اقتضته المناسبات واستدعته المواقف وتخلص من ضرب الأمثال إلا فى فترات متباعدات وآثر الإيجاز والتركيز على الاستطراد والتكرار .

نحن نظن أن باعث الاطناب فى الرسائل وغيره من التكلفات هو كان شبابه المفتون ليبهر الناس بمعارفه الواسعة وثقافته الشاملة . ولما برزت شخصيته واحتلت مكانتها بين الناس إنطلق مع طبيعته الفنية ومواهبه الفطرية .

☆☆☆

المستوحاة من افكار شعراء المهجر

محمد عارف حسين ☆

تاريخ الأدب وتاريخ اللغة
قد أعيش فى جو المجموعات
فى غابر الأزمان والحوادث
أقضى الحياة فى التحقيقات
تحليل دقيق وأسلوب حديث
وكتابة القصة من محدثات
أبتدع لونا جديداً مرحا
من سحر وهزل وجدليّات
أستحدث طرقا تكاد تكون
ندرة الزمان فى المالوفات
يستمد شعرى وحيه من غرب
مستحدث الأسلوب، جديد اللغات
لون يختلف عن اللون الرمزى
قد أستنيره من مطالعات
صبغة اللون المحلى الزاهى
والمحاولة الناحية للتمصيرات

☆ القسم العربى بالجامعة الإسلامية على جرة

أقرض الشعر عن إحساس المرهف
وأعكف على دراسة المسرحيات
شاعر رمزى فى الشعر رمز
وقد أحظى بحب وتقديرات
قد أطلقت نفسى عنان الحرية
وأخـرج مـن كـثرة التقيـدات

☆☆☆

كلمة من نشاطات القسم

بروفيسر الدكتور عبد البارى

الحمد لله والصلوٰة والسلامّ على رسوله الكريم

لم يزل قسم اللغة العربية بجامعة على كره الإسلامية يحاول للاتساع والتنوع فى البرامج التدريسية ومجال البحث والتحقيق ويبذل عنايته الى تنمية وتعزيز اللغة العربية وآدابها فى الهند، وعلى مر السنوات نشاطات البحث استمرت تزداد وتنمو وبدأت المحاولات تثمر بعد حين ٠

والقسم سعيد بأنه يحتل مكانا فذا فيما بين الاقسام العديدة التى قدرت تقديراً جيداً ومنحت مكانة خاصة حيث اعطتها اللجنة العليا لمساعدة الجامعات مساعدة خاصة فى المرحلة الثانية ايضاً فأنتهز القسم هذه الفرصة وعقد المؤتمرات القومية والدولية ، حول موضوعات علمية مختلفة بالاضافة الى عقد الدورات التربوية التنشيطية حول الادب العربى الحديث والأدب العربى فى العصور الوسطى وبالأدب العربى الهندى ٠

وبالإضافة الى تحسين مستوى التدريس وتنشيط الدراسات العلمية والأدبية واصدار مجلة المجمع العلمى الهندى ونشر البحوث والمقالات، القسم يعتز بأنة ينشأ المختبر اللغوى الكومبيوترى

(Language Lab.) الذى هو يكون أول مختبر من نوعه الخاص فى الاقسام العربية بالجامعات الهندية.

ونشاط البحث مازال يزداد يوماً فيوم فبالاضافة الى ان الاساتذة يهتمون بالبحث والتحقيق على وجه خاص، قدمت فى القسم الى الآن اكثر من ١٦٠ مقالة الدكتوراة التمهيدية والدكتوراة واكثر من ٥٠ طالب مشغولون فى اعداد ابحاثهم.

نرجو الله تعالى ان القسم لايزال يتقدم الى المستقل الزاهر وينال مكانة خاصة فى الجامعة.

☆☆☆